نساء الليل والنهار

تأليف

عماد الدين عيسى

1429هـ - 2008م

دار العلوم للنشر والتوزيع

obeikandl.com

عيسى/ عماد عيسى
نساء الليل والنهار/ تأليف عماد الدين عيسى
ط1ـ القـــاهرة: دار العلـــوم للنـــشر والتوزيـــع، 2008.
128 ص، 24سم.
تدمك 5ـ184ـ380ـ977
1 – مجموعة قصصية
أـ العنوان
رقم الإيداع: 2011/2008

جميع الحقوق محفوظة للناشر

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار العلوم للنشر والتوزيع – القاهرة، ولا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو نقله على أي نحو، سواء بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة الناشـر خطيًـا ومقدمًا.

الطبعة الأولى: 1429هـ/ 2008م

الناشر

دار العلوم للنشر والتوزيع - القاهرة

هاتف: 25761400 (00202) فاكس: 25799907 (00202)

الموقع الإلكتروني: www.darelologm.com

البريد الإلكتروني: daralaloom@hotmail.com

yahoo.com@2002daralaloom

إهداء

إلى...

كل من

تجد ذاتها

في

هذى الصفحات ...

فتئوب

وتطلق ثورتها

على زمن الضياع...

عماد الدين عيسى

obeikandl.com

(1)

" .... ألامر لـك ياصـاحب الأمـر ...أنـت ـ أيـضًا ـ ترتكـب المعاصي يامعلم ... لقد عرفت العجب العجاب عما وراء الجدران ... بل ساتحت ملابس هؤلاء ... "

نساء الليل والنهار

- لا . . . . ياسيدى التليفون عطلان
- . . . . . .
- لا . . إنه بلا حرارة
- . . . . . .
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
- . . . . . .

قلنا عطلان . . عطلان يا عالم . . .

منفعلاً ومتجهمًا داخل دكانه... ثم إعتدل المعلم " سمارة " في جلسته، وقد ضيايقه الجلوس مثلما أعياءه الوقوف والتحديق على إمتداد الطريق...

لعل أحـد يقبـل طالبـا شـيئا مـن بـضاعتة . . . لكنهـا الـساعات الكئيبة، التي

obeikandl.com

تمر عليه ملوثة! . . . لاشى غير هذا الهم . . . .

ونظر باشمئزاز نحو التليفون الخامد الآن! ثم تساءل متعجبا :

ماذا حدث للناس!؟ . . وما هذا ألايقاع . . . فالى هذا الحد المهين بلغ الخواء يحيوب الرجال!

وأنت ياسمارة على نفس الحال . . . ولولا أنك ـ بالكاد ـ تعود في نهاية

اليوم بأقل القليل من مطالب أم "هناوة" لكن يومك أسوأ الأيام . . . . . مثلما

حدث معك في الثالث عشر من الشهر!!

فحتى يهرب من المواجهة حمل من بضاعة الدكان . . . فكان منها الغذاء . . .

بل العشاء أيضا . . . . .

وعندما عرفت أم هناوه أطلقت شهقة وهى تخبط متحسرة على صدرها :

يعنى الأكل من لحم الحى!!

أصبح صوتها يعلو عليك . . . قديمًا كان الصوت العالي لك . . . والكلمة كلمتك . . .

تضاءلت صلابتك! . . . هل ذهبت تلك الأيام ؟!

لكن إلى متى . . إلى متى . . . . !؟؟

ـ التليفون يا عم سمارة . . . . .

ـ قلنا يا عالم . . . . . لاتوجد مرارة . . . ارحمونا . . . .

ووقف الاسطى فرج مكانه، وبعينين جائعتين يتجول على الأرفف بحثا عن شيء ما دون أن يفصح . .

ثم قال :

ـ الحال ضنك يامعلم سمارة . . . .

ـ هذه بداية المقدمة للشكك . . .

ـ ضنك الضنك . . . ادعى معى . . . افرجها ياكريم . . . . .

ثم قال :

ـ نصيبك . . جيرانك من أهل الميرى . . .

ـ والكل متعلق من عرقوبه . . على الشماعة أخر الشهر . . .

لكن نظرة المعلم سمارة غير المشجعة وصمته دفعا به للمضي، وهو يغمغم غمغمته يقطعها صوت دقات الكعب العالي ونبرات " أشجان " وهى تتطلع نحو الأرفف :

ـ عندك

عاجلها مقاطعا وهو يلفظ الوجة ذا الألوان المبتذلة :

ـ كل البضاعة مرتجع لصاحبها

ـ يعنى . . . . . .

ـ يعنى وبكل وضوح ليست للبيع . . . . .

ثم توجة نحو الاسطى فريد . . الحلاق، مع ابتعاد برطمة الأخرى المختلطة بدقات قدمين لساقين عجفاوين :

ـ ماذا أفعل ! . . . لم يعد لى غير زبائن الشكك . . . . وأبواب الصداع . .

وأخذ يحدق في الهاتف مسترجعا الأمس عندما اختلط رنينه بزمجرته دون أن يرفع السماعة، وقد اجتمع علية الغيظ مع الإحساس بحرارة تصلى تجويف الرأس، فقد هلت "جمالات" فجأة ـ ليلاً ـ بملابسها الشفافة، وتتغنى بالجسد الرجراج، وقد كشف يدها الممتدة عن الذراع الأنثوية، تم صوبت عينين تشعان.. بل تقيدان شفتيه وحلقة، بينما ترد على التليفون بدلع ودلال:

ـ آه... تقول متى!...

وتحركت أجزاء جسدها توحي... وتوحي...

ـ مطلوب الثلاث..؟

ثم بصوت يثير الدفء:

ـ آه... طبعا.. أخر حلاوة..

ومضت ثنياتها تعابث بعضها بعضا ثم واصلت:

ـ آه... آه... وأين.. طبعا على بساط الريح....

وتلاشت منة بقايا الصبر، واندفعت يده تغلق الخط... فاستدارت بضحكها المجلجل، ثم مضت... بينما لفتة عنقها المتعالية تتحدى فعلته... دون أن تأبة لصوتها الذى أخذ يعلو:

ـ أعوذ بالله...يارب سترك على ولاياك...احفظنا من غضبك وسخطك.

وشاء له اللفظ الأخير المزيد من الألم... فيستقبله الوجه الساخط بعد قليل... ماذا سيقول لأم هناوة.. لقد طالبته بأشياء كثيرة، ومنذ أسبوع.. وكررت ثم عادت وأكدت.. وما زالت كلمات الصباح الباكر في أذينيه:

ـ لا تنسى ذلك . . وأيضا النقود المطلوبة . . .

لكنني حتى اللحظة يامولاى كما خلقتني . واتجة ببصره نحو درج حساب التليفون ، برغم أنة كان يعود بالبعض منها ، إلا أنه قد كرهه في رنينه ، وفى صوته بل وفى صمته . . ففي كل الحالات أعانى . . فيوجعني أما فاتورته الفادحة ، أو زبائن الفاحشة . .

ـ الأمر لك يا صاحب الأمر . .

بهذا ارتفعت عقيرة " المرداسى " . . وهو يهرول داخل هلاهيل وفوق الرأس زعبوط . . .

ـ نعم . . الأمر لك ياصاحب الأمر . أنت أيضًا ترتكب المعاصي يا معلم . . عندما تتبع بأذنيك نتفاً من أى حديث . . آه . . لقد عرفت العجب العجاب عماوراء الجدران . . بل ما تحت ملابس هؤلاء ! . . .

وصرت دون أن تدرك أنك المحطة لكل الأسرار . . لكن كثيرًا ما ينتابك الألم وترفض هذا الدور . . وبإصرار وقسوة تمنع عنهم التليفون . . .

فهذه "سوسن" لم تعد تراها إلا حزينة . . جمدت على وجهها علامات الأسى . . . . لقد انقطع عنها الرنين . . . . لم يعد "عادل" يطلبها ، ومن بنصرها الأيمن تلاشت الدبلة ، واختفت أيضًا بعض النقود التي تتخير بها ما يروق لها ، أو من الحلوى لأخوتها الصغار . . .

وتلك "داليا" التي لم يعد يراها إلّالماما . . كانت تغدق أيضًا بمشترواتها . . . ثم توصية ألايشغل الخط تليفون : الخليج : سيدق . . . . دائما يكون في الطرف الأخر الأسطى "المرسى" أو

صوت رسوله يحمل المال إليها . . . لكن فجأة . تباعدت المواعيد . ثم حل الصمت . هل فقد عمله ! . . . أم فقد عقله وتزوج بأخرى في بلاد الغربة . . . أما هي فعلا تفصح بشئ غير الصمت . . . . . ثم ها هو الولد سمير يقبل من بعيد منتفخًا . وحتى يقترب من دكانتك يهرول مضطربا . انتابته هذه الحركة منذ دفع به خارجه ، بعد أن جذب منه السماعة ، وذلك على أثر حوار ألفاظه وقحة . . . لقد تعكر على الجيران صفو الأيام . . . صارت دكناء تبتلع البعض تلو البعض الأخر وكان يساوره ذلك القول :

" من رأى منكم منكرا فليغيره " . . لكنه لايعرف ماذا حدث ! . . . ففترة بعد أخرى تداخله الخشية من أن يتخاذل ! . . لايرغب أن يفعل مثلما يردد أبو الروس : دع الملك للمالك ، يرى " جمالات " . . . . أجمل نساء الجيرة . . . لقد رأت أيام العز في حياة الحاج عمران . . . كفل أخواتها صغارا . . . ثم مضى . . . وكاد الأولاد قبل الضرائر أن يفتكوا بها ! . . . . لم تحصل على شيئ . . . فقط مع قسوة الأيام تعذبت كثيراً ! . .

وظل اَسفًا . . أن تكون اليد قصيرة . . فالمرأة جميلة . . . لكنهلم يستطع الاقتراب ومعها ذلك والحمل الثقيل . . .

اَه . . إسأل مجرب الأحمال . . . بعد سنين مع الجدة والأم والاخوات . . . وأخيراً هاهى أم هناوه . . ياللسيرة . . ويالك منها ياسمارة . . انها علي انتظار منذ الضحى ، أن يرسل إليها ماطلبت . . كيف ستواجهها ! . . . بل هناك مطالب هناوه ، عندما تعود للكلية . . . أنها أرقام النقود . . أرقام الدروس . . . أرقام الكتب

والمذكرات . . كانت النقود زمان نقودا . . . كان يمشى منتفخ الأوداج بل تملأه الثقة عندما يعود حاملاً الهدايا إلى هناوة فتبش وتقفو أثره . . أو تستقبلة خفاقة أيام الخطوبة ويتماوجان بالسعادة في أجازته القصيرة الخاطفة قبل الحرب وعندما عملها ورفقاء السلاح وانتصرنا كانت الفرحة الكبرى كان زفافهما . . لقد اتسعت الحياة للجميع . . . أما الآن ! ! فحدود الدائرة تضيق بك وعليك . . . فما العمل إذا كان الجيب خاويا ! . . . والدرج فارغا . . . وحتى البضاعة على الأرفف لا تتحرك إلا بالشكك . . . وفى هذا خرابك ! وها هى الساعات تتوالى وما زالت الحركة ملولة . . . يقطع بعضها دون فائدة ، وأحيانا بسرحان قد يمتد وقد ينقطع . . . هكذا تعود أن يفعل منذ الضحى ، فيسلى النفس باستعادة أحداث الأمس . . . يعلم ـ مع الصباح ـ بعضا من أخبار هذا أو ذاك منتشراً هنا أو هناك عن حكايات الليل . .

وتخرجه فجأة أصوات منغمة من "جمالات" وأخوتها الثلاث . . . يتضاحكن بغير حياء وتوترت عضلاته ليهب ، ويطلق عباراته الرافضة ، ارتدت نظراته بأوراق خضراء ذات الأرقام الفخيمة ، وباليد الأخرى رفعت جمالات قائمة طويلة بما تريد من الأنواع والأصناف ، بينما تقول وهى تدفع بورقة نقد أخرى :

ـ ياليلى . . . إدفعى لشلبى القديم والجديد . . وهاتى ثلاثة كيلو لحما .

ـ وأنت ياعلية . . . . هذه لمدام سواريه . . ثمن الكولونيا والمكياج و . .

ـ أين نوال؟ . . . إعطي عم سيد الترزى أجر الثلاثة فساتين .

تم راجعه صوت جمالات يقطع عليه دهشته . ووقفته المتخشبة :

وعادت تتثنى بدلال نحو التليفون، وبهدوء شديد تدير القرص، ثم يدورالحوار مع الطرف الآخر وبدلع ومجون:

ـ لا . . . لا . . . الليلة لا . . .

ثم وهى تمطط الكلمات:

ـ ستكون . . أحلى . . وأحلى . . وأحلى ياباشا . .

ولم يأبه المعلم سمارة للحديث الذى طال وطال، فقد تلقفته حركة دءوبه بين الأرفف ولفف البضاعة . .

وأصبح ناظره يراه وقد احتوته حالة من الرضا، بعدما لحظت عيناه صبى الجزار وأخت "مدام سواريه" وعم سيد الترزى، يتزاحمون على الدكان، وتتداخل أصواتهم . . بما يريدون . .

* * *

obeikandl.com

(2)

"سرحة طويلة تشدك إلى تلك الأيام! . . كنت مثالية النظرات . . تحاذرين التورط فى علاقة مبكرة . لم ترفعى مثل زميلات . . شعار : الزوج والشهادة بحجر واحد" . .

ليته يقول لى

ـ إلى لقاء . . .

ـ ليته لقاء إلى الأبد . . .

ـ . . . . . .

هل حقا أنهى كلامه . . وضع السماعة! . . مازال في أذنيك إيقاعه . . .

ـ على فكرة . . درجة الحرارة ستكون خمسة مئويا . . . لاتنسى يادكتورة هالة . . .

دكتورة هالة! . . دكتورة . . دكتورة!! ويطرق أذنيك الصوت :

ـ من غير الدكتورة هالة ـ طبعا ـ لن نحقق شيئا . . يردد ذلك رئيس القسم تظرفًا منه أو كلما شاء أن يضاعف المطالب . . .

يذكّرك بتلك الأيام . . يتفنن الآخرون في التقرب اليك . .

"نادية" خلال العودة من الكلية همست إليك . تعدد أساليب تقرّب المعيد الفلانى . . أوالدكتور "عزمى" إليها . . !!

أربع سنوات ظللت تكافحين . . الأمل ذلك "البكالوريوس"

obeikandi.com

وبتقدير معقول! . . تواضعك مع قدراتك أوقفك عند هذا الحد من الطموح. . . .

دكتور "جبر" دائما عند الثالثة موعده. كالمعتاد ستقف العربة أمام الباب، ويطلبك "الكلاكس" . . الصوت في أذنيك مقيت!!

ـ ستعودين إلى المنزل. . . .

جميلة يا "هالة" . ولم يكن ذلك كل شئ تعتزين به! . . . تسعين إلى تجربة شخصيتك. ترين فيها جمالاً ينشده الجميع. . .

ـ أنا أصبحت دكتورة بلا شهادات. . ها. . ها. . ها . . .

قالت (الهام) وهى تواصل:

ـ أتعلمين؟! . . دكتور "علي" ناداني بهذا بعد محاضرة الوراثة! . . نظراته هوت على تتبسم بالمعاني. . .

هيه! . . . هيه. . . ! العجيب أن تقدير "الهام" في مادة الوراثة مقبول! . . لكنها تجيد همس الرموش! . . وبين الشفتين! . . ويخلعون عليها الألقاب. . تنجح آخر العام. . . في الصمت مضيت تحرثين! . . تغرسين! . . تنتظرين حصادا آخر العام. . .

كثيرات بنظرات العيون يعلن "جبر" دكتور. . كبير! . . سيارة! . . منزل على أحدث طراز! . . ثم يلمحن إلى عملك في مركز البحوث. . "دكتور جبر" صاحب نفوذ كبير كرئيس قسم في المستشفى العسكري وكلمات حسد من زميلات لم يعين في مثل وظيفتك. . .

دون أن يطل على مكان انتظارك أمام باب المركز. . يظل بوجه

جامد حتى تجلسين بجواره . . .

طوال الطريق إلى المنزل بينكما مقتضب الكلمات ! . . الطرقات تتفرع . . أمامك كثيرة عديدة . . تريدين توقا الارتماء إليها . . تتوزعين في أفرعها . . تختفين في الزحام . . تنحشرين . . تغرق ثم تطفو لتلتقي بذلك الوجه ! . . آه . . يطل رائعا في عينيك . . آه ! . . ثم يتشكل البيت ! . . يسابق سرعة السيارة . . جدرانه تلتف حولك . . تعزلك ! . . وبغداء "جبر" ينسدل صمت آخر . حيرى تدورين بين الحجرات . .

الخطوات صارخة ! . . الحركة محسوبة ! . . لم يحادثك . . لم يجلس يوما حين تريدين . . .

عجيب ذلك الإحساس ! . . يفاجئك ! . . لم يكن مثل أحد عند التسليم ! . . آه . . يده بمجرد اللمس تلتقين بالحنان ! . . ينساب في كفك خدر لذيذ . . .

"عادل" بأبعاد وجهه المريحة ، والمتسقة في وسامة يملأ مقلتيك . . يظل كل شئ خيالات ! . . كنت مثالية النظرات . . . تحاذرين التورط في علاقة مبكرة . لم ترفعي مثل زميلات شعار الزواج والشهادة بحجر واحد . . .

وتعلوا الابتسامة ! . . .

"البطة جاءت" . "البطة ذهبت" . . "البطة في المدرج" . "البطة . . البطة" . . . . .

يهمس الزملاء في أحاديثهم . . .

لم أكن فقيرة الجمال، ولا أدعى أنني فاتنة! لكن بحركة لا إرادية أمام عادل تحرصين أن يراك جميلة! . . تطاردين أى تغضنات تظهر على صفحتك. . . .

هيه! . . هيه! . . وجاءك "جبر" . . "الدكتور جبر" خطوبة فزواج. ثلث الساعة تقطعها السيارة الى المنزل تودين ألاتنتهى أبدا. . وبنظرة جانبية محاذرة. . تصطدمين بالشعر الأبيض زاحفًا الى أعلى رأسه. وبعينين قلقتين تشرتبين. . تتفقدين في المرآة وجهك. . البشرة. . تبحثين عن النضارة فيها. . أصابعها تهتز خلال خصلات الشعر الفاحم. . .

ـ أريد عدسة "1: . . . ، 1." يا هالة. . .

الوحيد الذى يناديك مجردة، وتشعرين براحة وأنت ترددين الاسم مجردا. . .

"عادل" باحث حديث. . ترينه منفرداً بين الآخرين في أسلوب البحث.

يملأ المكان المكدس بالأجهزة والمواد حياة. . . تودين له أضعاف عنايتك. . .

لا تستطعين تفسير نفسيتك! . . حين حاولت سرحت بعيدا. . في التأملات أخذتك النشوة. . .

وطغت صورتا "أيمن" و"عبير"! . . وأطلت التحديق. . زاغت طويلاً وبدا وجهك على المرآة المواجهة يطل بطبقة (الماكياج)! . . قديمًا لم تعرفى لصق طبقات المساحيق على بشرتك. لانك كنت سعيدة!! . . . تتحسين الآن هذة الدهانات والألوان. وتحاولين

التأكد من جمالك، خاصة حين يقبل "عادل" الى المعمل . . .

يؤملك دائما الصباح! . . تنيقطين والزهرة ذابلة وبجوارها صورة "جبر" يقترب منها عنكبوت . . .

"سهام" قبيل الانصراف واجهتك بنظرات تقول:

ـ أنت محظوظة! . . بعد قليل ستحضر السيارة . . لن تعانى من جحيم المواصلات . . في الحى الراقى الطريق الى البيت . . .

ـ رائع . . رائع يادكتورة هالة . . .

والابتسامة مهذبة . . مشجعة . . ردد رئيس القسم قبيل أن يطلب مراجع الابحاث . . ثم يواصل:

"طبعا دكتورة . هو أنت أقل من الدكتور جبر" . . . ويضحك ضحكة التفاؤل . . وتبتسمين . . تحجبين ما تشعرين به من سأم . . .

"جئت اليوم خصيصًا لأسلم عليك" . . .

وتمضى راحتك في يده ترتاح! . . . .

كلما جاء "عادل" الشحوب يتلاشى، وتهجرين المساحيق . . تعود (البطة) امتلاء بالحيوية . . .

أذلك التعبير مجاملة؟! . . ألقاء اهتمامك بالبحث القائم به؟ . .

وسرحت طويلا . . بعيدًا همست! . . ترى "عادل" لمن؟؟ . . . أهى جديرة به؟ . . . محظوظة تلك الفتاة . . . .

لكنه يسعد بك في الحديث عن بحثه! . . . دائمًا يشدهك! . . ويسرح بك ومعك في وادى اَماله العميقة . . .

فرحتك كبيرة حين حصلت على (البكالوريوس)! . . . وبدأت

تطمحين الى الحياة . . قررت أن تفرخي في كل يوم أملاً جديداً . . .

"عين العقل يا هالة" . . أمك وأبوك وصفاك بهذا . . . لا مفر إذن من هذه الحياة! . . وتعودت وأد مشاعرك! . . ليال تظلين أمام "التليفزيون" حتى يصمت! . . وكثيرا ما تستيقظين من غفوتك على طنين الجهازوالضوء الساطع، "جبر" تركك وغط في نومه . . . ! !

تأوين! . . مهيضة النفس . . .

ناورت وقلت:

ـ ذلك الفيلم أحدث ضجة .

لا تعرفين كيف حدثت المعجزة واصطحبت "جبر" الى دار العرض، وكان حوارنا بايماءات . . في ذلك المساء . وانت فوق العشرين بخمس سنين، وعدت معه تلتصقين في تردد . حاولت مرارا طرد شبح مشاعر تقتل التعطش الى رجلك! . . .

أخذت تتنقلين بين "أيمن" و"عبير" لتحولى حياتهما مرحا . ثم صرت تفعلينه برتابة . . .

وكلما جاء مساء يفرض أن تفتحى باب حجرة نومك . تشعرين أنك مسيرة قسراً إليه . . تتلمسين الجلد عندما يحتويك . . لكنه يعطيك فراشا باردا . . .

أصبح اقترابك المتباعد وظيفة تخفى حقيقة الأشياء . . . المؤلم يا "هالة" التفكير بهذا المنطق . . .

وتبسمت أسى . . وأنت تطلين في المرآة عليك . في تلك الأيام كانت المعاناة! . . آه . . آه . . خضتها وأنت ترددين لا وقت لدوامة

العواطـف! . . (المرحلـة جـادة . !) . . مـسئولية الطالبـة التفـرغ للدراسة . . .

لم يبد على "سهير" الاقتناع وقتذاك بقولك . . لم تعد تبد أمامك حديث العواطف . . انصرفت عنك . . .

نظراتـي لم تكـن تجـارة! . . لتكـون حيـاتى ترقبًـا لمكـسب أو خسارة . . .

"هالة كاملة! . . عين العقل! . . يحميك الرب من كـل شـر" . . صارت أمى تردد ذلك . . .

نظراتـي إلى المـرآة ذات صـباح! . . لم تـصدق مـارأت! . . آه لم تصدق تلك الكلمات . . .

"قرأت نشرة "اليونسكو" يا دكتور على! عن وراثة الجينات"؟ . قال الدكتور (قنديل) :

ـ "بحث جديد عن وراثة الجينات" . . .

ـ لقـد قـدمت بحثًـا عـن تغيّـر الـصفات . نتيجـة التـأثير والإيحـاء النفسى .

ويلح خاطر عليك . . فاقتربت من مكان المرآة . . .

ـ قرأته . . وهو تغيير يسى ولاشك . . .

ـ "هناك أيضا التغيير بالمعاشرة" . . .

وأمام المرآة وقفـت طـويلا . . . ذاهلـة . . تـساءلت عمـا يـضيفه (المكيـاج) إليـك . . عجبًـا مـا رأيـت! . . إنـه يخفـى شـيئًا مـا . . آه! . . الحقيقة طبعا! . . ها هى حدقتاك . . حجم الأنف . . شكله . .

ما تحت العينين وحول الفم! . . كلها تماثل سمات "جبر" . . . !

جرس التليفون يدق! . . "عادل" على الجانب الآخر يسأل عنك! . . تتلذين حين ينادى اسمك منفردًا! . . وتسمعين أنغام الدنيا! . . حنون . . ودود حين يسأل عنك! . . يقول أنه يشعر بوحشة! . . أكثر رقة وحنانا بسؤاله عن عليك! . . أبذلك يترجم ما لايمكن الإفصاح عنه؟؟!!

آه أبتها المعذبة! . . نوازع الشباب تشحذ عقلك! . . من كلماته العادية تنسجين المعاني! . . حروفها صور شهية! . . تشكلين أبسط إيماءاته . . تسرحين في عالم تتوهمينه كائنا . . وتقبلين دون إرادة على درب يجرى غامضا! . . .

"جبر" في البيت صموت! . . أورثك السكون! . . لكن العاصفة . . . تكمن . .

"إذا سمحت يا دكتورة "هالة" . . أريد نتيجة تأثير الأشعة" . . .

بدأت تستملحين هذه الملاحقة! . . بلاشك وراءها شعور طيب . . من سمات "جبر" تحاولين الهرب . . في الطريق تتسلط فكرة التصاق قسماته بوجهك! . . هذا أيضا يذكرونك به . . . !!!

ولم يجد يك الهروب! . . يطاردك . . صار يتعقبك إلى العمل . . .

"أيمن" و"عبير" . . سأرسم لكما الصور الملونة . . رسمت أصابعك أشكالاً بشعة . . إعكس ما كنت تودين . . نظرا إليك . . لم يفهما شيئا . . استفسرا . . لم تجيبى . . انصرفا عنك . . هيه! . . هيه حتى في أمومتك فشلت محاولة أخرى للهرب! . . أتريدين

الفكاك؟! . . حياتك أسيرة قلعته . . الاكتشاف متأخر! . .

حيرّك اصفرار يكسو وجهك! . . وتسلل إحساس تعس! . . قسمات وجهك لازمها الشحوب . . .

ـ أوحشتنى ياهالة . . أتمنى رؤياك من زمن . . .

ألايرى الشحوب؟! . . هل أخرج المرآة وهو بجانبى . . أكيد محاورته لى تزيل علامات التعاسة . . .

من الطرف الآخر يجيئك صوته! . . ويعود الشعور الغامض الى التسلل! . . أمنيتك ألايسكت الصوت . . ألاّ تنتهى المكالمة . . .

وتعيشين كثيراً كثيراً في تساؤله التليفونى! . . مراراً يقول :

ـ " اطمئن عليك " . . .

أهى العاطفة؟! . . هل؟ . . هل هو . . . ؟ . . .

تستبعدين الخاطرة . . .

لماذا تكونين أنت؟! . . أنا امرأة وزوجة وأم! . . لا . . بلاشك في صدره عذراء تنبض . . سيبدآن سويا . . لا . . . لا . . . فأنت . . أنا ماذا يعنينى! . . أنت تخشين هذا السؤال . . فدائما تطالعك المرآة بجبر على وجهك! . . في صورك الأخير صرت تعقبين . . .

يا للحيرة!!

ـ من فضلك يادكتورة هالة . . أريد درجة الـ " بى . إتش " امتعضت . . .

صرت تمقتين اللفظ! . . " جبر " سيجعلك تكرهين حياتك! . . مجلداتة تزحم المنزل . . في كل مكان تحاصرك . . تضيق الحياة . . نبراته

تنشر الاصطلاحات طوال الليل . . .

وثرت ذات ليلة ! . . أحسست أن من الواجب أن تثوري . . . أردت ـ وفي العينين " عادل " ــ أن ينالك حين تريدين أنت . . . وتناومت ! . . أيطفىء المصباح ! ؟ . . متى يفعل ؟ ! . .

وآلمك اللجوء إلى هذا الاسلوب . . .

الموقف أكثر تعقيدا ! ! . . .

فى النهاية أخجلك التنقيب عن طعم النشوة خلال الجفاف . . .

" عادل " . . حين يقترب . . إحساس عجيب ينساب ، تستيقظ فتاة فائرة . . تنطلق استعداداً للحياة . . .

حيّرك حدوثه رغم صمتك ، وفى كنف زوج . . .

" سناء " نظرت إلى وجهك طويلا ! . . أحاطت عيناها بعينيك . أبدت قسماتها الجزع . . ثم انسحبت في محاولة هروب ـ إلى حديث عن إحصاء التجارب واستعمال " للكمبيوتر " وأمام المرآة في اليوم التالي تربثت . . تفحصت ! . . آه . . ! . . حول عينيك أطلت التجاعيد ! . . تهدّل صفحة (جبر) يزحف إلى وجهك . . .

رزأك " جبر " بعمره أيضا ! . . يحزنك صمت صباحك . . لم تزقرق فوق حياتك الأطيار . .

ـ مع الخريف تنخفض الحرارة ! . . البرودة يا دكتوره تصيّر كثيراً من النباتات الى جمود ! . . الذبول وتساقط الأوراق . . يجعلها في شيخوخة رغم مرحلة الشباب . . .

ـ " شيخوخة إجبارية رغم الشباب " . . .

ـ "إنة الشباب المخدوع" . . .

تفجرت في رأسك عبارات "دكتور مصطفى" ، وتسرى الرعدة في أطرافك . . .

ويطول الليل ! . . تتبرمين بين ذراعى "جبر" ! . . يبثك إحساساً مخيفا ! . . النباتات في الصباح يدركها الذبول . . . ! !

إحساسك أن فراشه ممصات أنغرست في جسدك ! . . تساورك مشاعر الشباب . . يمنح خلاياك الجفاف . . . مراراً حاولت الانقلاب من الطوق . . . ولم تجُدْ المقدمة . هيه ! . . هيه ! . . أيام مضت ولم اسمع (عادل) ! . . أين هو ؟ . . أفكارك . . . جنون . . .

وراء ماذا تنطلقين . . . ؟ !

لم يصرّح بشىء . .

حدْس المرأة إذن ؟ ! . . . قلبك ؟ . . فراسة الأنثى ؟ . . . أ بالصمت يقول ! ! ؟ . . .

يمكن . . .

ماذا عن "أيمن" و "عبير" ؟ . . أتهجرين طفليك ؟ ! أريد الرحيل بعيداً . . بعيداً ! . . .

"بعد التخرج سأسفر الى أوربا ! سأ نطلق في العالم ! . . . و . . . و . . . "

والدى نظر إليّ طويلا ! . . . والدتى تعجبت من ذلك الخيال ! . . .

"عادل" قال :

ـ إنه يسعى من أجل المنحة . . سيواصل دراسته في الخارج . . .

هل كان يلمح بشيء حين نظر إلى عينيك . . فأرسل قائلا :

ـ ستكون الرحلة بقطار أوربا رائعة ياهالة . . .

لايمكن أن يكون مجرد كلام . يقصد شيئًا طبعا ! . . . التفاسير العادية مرفوضة . . لاأقبل المبررات التى تصنع ذلك المعنى . لابد أن وراءه حقيقة ! . . "عادل" يعرف لهفتى الدفينة للسفر . كأنه يقول :

"سأحقق لك يا هالة الأمنية" . . .

يعد الآن نفسة للسفر . . . سيسافر . . . سيسافر . . .

"ماما . . اريد القطار . . أين قطارى" ؟ ! . .

"أريد الشيكولاته يا ماما . . العروسة ستأكل معى" . . .

"عبير" و "أيمن" . . قيد العنق ! . . يبددان انطلاق الأحلام . . .

طويلا نظرت . . حدّقت فيهما . . رحت تبحثين عنك . المفزع . . سمات "جبر" احتوت قسماتهما ! . . ملامحه تطغى . . تسطير ! . . من رحلتك على الوجهين الصغيرين عدت فاترة . . شاردة . . .

وتكشفين مرور الساعات ورأسك ـ تحت الشعر المتهدل ـ منكفئًا أمام المرآة . . منهكة الجسد ! . . .

"لم نرك من زمان يا أستاذ "عادل" ؟ . . . ما أخبار المنحة" ؟ . . .

نظرت بعمق الدنيا أطلت من عينيه ! . . حركة شفتيه همس الى . . .

لا أعرف كيف أخرج ألفاظى ! . . .

بضغطه يدى في يدة . . حشد في صدرى شتى المشاعر . . ينتشر الدفء في الجسد ! . .

النباتات الشاحبة استيقظت داخل الغرفة الزجاجية . . .

" قريبا سأسافر . . حصلت على المنحة " . . .

" لا أرى الساعة تتعدى الثالثة . . . لا أسمع لدقات " الكلاكس " . . نسيت تماما السيارة . . آه . . التابوت أمام الباب ! . . .

وعادت حبال الصمت تحيط بعنقى ! . . من الزجاج الأمامى تنطلق عيناى . . وعرأمامى الطريق الى البيت ! . . بساط العمر ينسحب رويداً . . رويداً من تحت قدامى ! ! أتلوى أسفل العجلات ! . . حياتى تنطوى سريعا ورائى . . .

وألتفت . . أفزع إلى النافذة الخلفية . . أعيد النظر . . آه ! " عادل " . .

مازالت عيناك درب العمر ! . . أتعاود شفتاك محاولة الهمس . . . ؟ ؟

آه . . . آه . . آه ! . .

تحملق عينا " جبر " في وجهك . . يبدو مصعوقا . . . ماذا أصابك ؟ ! . .

صرت تتحدثين بصوت مسموع . . . ! ! !

***

(3)

والشمس تصنع موعداً للغروب . . . خارج النافذة أميل بجذعى . . تختلط الرؤية في عينى . كل النوافذ تفتح . . . رجال كثيرون يقفزون . . . تتردد صرخات الموت . . أيضاً أنا أريد توجيه الصرخة . . . فى كل الأرجاء يمضى صداها . . ثم أفعل مثل هؤلاء . . .

حجرة في الطابق الخامس

في موعدها تجئ تلك القطة . تسلل كل صباح . . كل مساء . . تختلس غذائى . الآن تأتى علية . لا أحرك ساكنا ، فلم يعد يثيرنى ذلك منها ، اعتدت أفقد أشيائى في صمت .

الملل ، وخمول عجيب يتصيداني ، وبضيق وجهى يضغط الوسادة . رأسى . . عندى الرغبة أن أنهشة الآن . . أغرس أظافرى غير المنتظمة فيما بين الشعر والجلد . مشاعرى إبر تتخلل جسدى . . أتقلّب إلى جانبى الآخر ـ للمرة لا أدرى الكم ـ أعيده إلى الأول . . . أستجدى الهدوء للحظة . . محاولتي الأخيرة أن أستقلى على ظهرى وأصدر نفسا عميقا . .

فى السقف . . تقطع عيناى الرحلة . . تتعلقان بشروخ سوداء . . يطالعني منها الغائر المتسع وغير المنتظم . وخيوط دقيقة تمتد . . تتسع وتتسع . . . تصل بين بقع صفراء تطل على البقع . . تعاريجها تكّون ببطء وجهًا لإنسان ما . . نظراتى تُبطئ في سياحتها . سقف الغرفة بلا

نهاية . . يرتفع سريعًا ويضيق مع تصاعد عنياى إليه . . .

شعوري إني أهبط في الجب شيئًا فشيئًا . . . بلا نهاية . . .

آه . . إصبعى تؤلمنى . . الخيط الواصل إلى أعماق الرأس تـوتر . . رد الفعل ان يجمد الصوت قبيل الأذن قليلا . ظفر اصبعى إنتهى قرب اللحم . . المعاناة فيما بعد . . عند الامساك بقلم لأية كتابـة . أف لهـا وللأقلام . العمر هباء بين أكداس من الأوراق . . وتلك ينبعـث منهـا الغبار ورائحة السنين . . . .

حركة صفى أسنانى رتيبة . . . مازالا يقرضان أصابعى .

" التمـــارض . . الانقطـــاع عـــن العمـــل . . الاســـتهتار والاهمال . . عليك مواجهة جمعية عند التحقيق . . "

يعود الوخز بين اللحم . . محاولـة الكـف تعـود خاسـرة . . كنـت أردد صراخى يومًـا مـا . أمـام اسـتفزاز رئيـسى وجهـت الـصفعة . . أطلقت استقالتي المسببة . . جـاءت لطمـة . . كلمـاتى تـنقض علـى وجهه والزملاء والسعاة، وكل الـدواليب الـضخمة المكدسـة بأطنـان الملفات، وكل أدوات الزلم والنفاق . . .

عفن . . قمئ . . ما هنا يجذب الذباب الأزرق . . . .

استغرقتنى النشوة طويلاً . . . ناظراى في رعدة يرتدان إلى . سـلك الكهرباء قمئ . . أتراجع تقززاً . شعور الرهبة يلتصق بـى . . أضـغط جسدى في الفراش . . آلاف الـذباب تحـت الـسلك تمامًـا أذنـى أتقـزز منه .

صوت الفحيح يستمر مع تحرك النافذة . . حركة الهواء رتيبة حـين

يتسرب إلى صدري المكشوف.

إحساسي أنني قد أمرض.. وقد أموت.. هذة الخاطرة أتسعدنى ان تسرى إلى. ظل القميص على مصراعية.. أدق يسار الصدربيدى.. لماذا تقاوم؟.... متى يصمت كل شئ..؟

إلتهاب جسدى عاد.. حرارة غريبة تمضى حتى الأطراف: "فو... تكتك، فو..فو تكتك، فو..فو..تكتك، فو"

أنفاسى المتزاحمة.. ضجيج أخر ينتظم مع صوت "المنبه".

في الفراش لا يستقر رأسى.. الوسادة مازالت فوق الأرض.. للخلف أسحب قدميّ... و... ترتفع ركبتاي.... اثنى الجذع كرياضى قديم تحت قدمى وبين ساقى.. تكومت الملاءة تداخلت تخنق حركتى تماما..

بعيداً أنفض كل شئ قدامى أمام "فردة شبشب" وحيدة. أتردد ثم أمضى.. ثم أعود لأرتديها. فكرة الانثناء للنظر تحت الفراش راودتنى دون أن أفعل..أمضى إلى النافذة..أسكت صوت ألازيز..حين فعلت خمد "المنبه" أيضا... إنه يتعطل في هذا الوقت كل يوم... إلى النصف بعد الواحدة يشير، وبضع دقائق.. كالأمس وقبل الأمس.

الشمس الآن تصنع موعداً للغروب.. خارج النافذة أميل بجذعى.. تختلط الرؤية في عينى. كل النوافذة تتفتح.. رجال كثيرون يقفزون.. تتردد صرخات الموت.. أيضًا أنا أريد توجيه الصرخة.. في كل الأرجاء يمضى صداها.. ثم أفعل مثل هؤلاء...

سريان "نشادرى" داخل رأسى . . مع ساقى يتعاقد الخور . الأرض تتباعد حول المنزل . . البيت المقابل ـ فقط ـ احتل بعض الحيز . الدورالرابع منه يشد الرغبة، وتتماسك ساقاى .

"البلكون" يتصدرحدقتى . الشئ المؤسف أن الباب مازال مغلقا . . وحين استدير . . حول الفراش ملابسها مبعثرة . . ساقاها الجميلتان . . كل شئ فيها يستسلم لى . . أنقض . . يداى تلوكان الفراش البارد . . طرقات دقيقة تطرق أذنّى . . مقبض الباب يتحرك . . أمضى إلية أرقبه . . أنادى "من بالخارج . . ؟" .

الصمت يجيب . . إلى "الأكرة" ثانية اعود . . ألمس برودتها . . الغبار من الخارج يعتليها . . واجهنى الخواء . . أتراجع . . أغلق علىّ وحدتي .

بكل خلفية جسدى أستند إلى الباب، الذى صفع الخارج بكل ما في صدرى .

وجهى . . في خط مائل يلتقى بالإطار المصلوب على الحائط . . أتجة نحوه . . قبيله بخطوة أرتكز على ساقيّ، وبطرف يدى أدفع شرائح الزجاج المبعثرة إلى جوار الحائط . منها قطعة في يدى . . اختبر إلى أى مدى هى حادة . . وخزتنى . . إبهامي في فمي أستقطره الدم .

القطة تظهرمن مجثمها . . تملأ الصمت مواء . . أدفعها بقدمى . . تنطلق من النافذة . خطواتى ثلاث . . نظراتى تحتضن الفراغ خلف النافذة . القطة على الإفريز الضّيق أجادت المضى . . اختفت . .

منذ الأمس لم ينفتح "البلكون" . . كانت تطلق لجسدها الحرية . . آه . . العبارة مازالت تطل أشواكها بجوار الباب المغلق . .

ليس أمامي غير أعقاب سجائر . . أعيد حرق أحدها . . لقد تعودت استعمال الاشياء المستعملة . . أقلب إطار الصورة . . آه . . لعلها في أحضان رجل ما . . أو أكثر . . .

"فيفي" . . عندما تجيء متعجلة . . وعندما تمضى . . الجوع بداخلى لا يشبع . . ملابسى المستعملة ، كذلك ، مهملة في غبار ركن الحجرة . نظافة أى شئ ضحية المضاجعة . .

في الظهيرة ظل زوجها أمامى فترة ، في عينيه الشرر . . لم أبال به ، ولم تنفتح "البلكون" كالمعتاد . . .

أسرع من جزء الثانية أتراجع داخلا ، وبداخلى وخارجى يرتبك كل شيء . . "فوا . . فوا . . فوا . . فوا . . فوا . . " . . .

الجسم الأسود انتقض فوق رأسى . . منقاره الرهيب كاد يختطف إحدى عينيّ . . أنفاسى تفقد الانتظام .

ببعد خطوات . . تقوقع جسدي الهلوع .

"فوا . . فوا . . فوا . . فوا . . " . . .

يتحداني بصراخه . . أمام النافذة ضرب الأفق بجناحية ويحوّم . بفكرة أن يتعقبنى داخل الحجرة ازدادت القشعريرة والرهبة . . أتراجع . . أغرب خوف يسرى إلىّ . . ثم . . عودة الارتياح . . يبتعد الغراب اللعين . . يستولى الأفق عليه . يصغر . . يتضاءل . . أصبح نقطة تزغلل العينين . . أرى الأشياء مزدوجة . . .

آه . . النقطة السوداء تبدو طرف دبوس يستدق . . أحس الوخزفى حدقتى . . يستديرالآن . . تدور سريعا . . سريعًا معه عيناى بركة

سوداء تتسع في حركة رحوية تشد رأسى معه . جسمى الجامد يتلولب . . بيضاويًا آراه . . أفقد معالمى . . لحظات ثم تاهت أبعاد الرؤية ترصد انتشطاراً في . . .

في تحفّز يدى تصفعها . . و . . بقسوة يتكررذلك . . قد مات الحب القديم والظلام يشتد . . تلوّى على الفراش ألمًا . . .

وجهي يلتقي بالإطار المقلوب . . هى المائة . . المائتان . . الألف . . في ليل حياته كانت الكثيرات . . .

قالت إحداهن : لا عليك سأعالج مشكلة التأخر . . أقول : " الكوافير السبب . . و . . " .

الأخرى قالت ذات مساء : " لا . . شئ سهل . . إنها أزمة المواصلات . . لا خلاف على مشكلة المواصلات . . " .

وضحكت عاليًا . . ثورة الأعصاب تعود . أجرها من الشعر . . تعصف به أصابعى . . أصفعها . . تسقط أرضا . . يدور في عينىّ الظلام . ومن حولى أصادف بقية ضوء مؤلم، آخر خيوط الماضى شاحبة . . قصة حب عفيف سحق جبل التحدى . . ثم الزواج . ما تم قذف برحالنا عند أول أعتاب المحنة في صوت (هيستيريا) الهزيمة . . رأى كلانا آلاخر بوضوح .

الفستان الأبيض لم يكمل شهراً بعد الليلةً التاريخية . . اليد تشقه . . و . . تخرجها . . إصبع موز . . الرغبة أن أهرسها . . اعتدت ممارسة الصفع، وهى تعودت الصراخ ساعات الليل . الشمس تطرق نافذة الأيام . مازالت المأساة . . طرقات الناس تهرول . . أشعر بدوار . . الغيبوبة أصبحت من مستلزماتى . . صرت أميز ألوان

الظلام . . . . ! !

"هى" . . عدّة أيام ثم عادت . . الأساس مفاوضة أسرية . . محاولة يتيمة لتجرى المياه بين الضفتين . . .

ذات يوم . . عقب تأخر مريب قالت زوجتى : "كان الكوافير مزدحما جداً" . . حين دقت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل ـ أسدلت "فيفي" ملابسها الداخلية، وهى تتلقى أخر ورقة نقد عندى : سأضطر إلى القول ان زميلة أخرى عقد قرانها هذا المساء . . ماذا أفعل؟ . . زوجى متعب . . أفٌ له وللرجال . . كلكم متعبون . . متعبون . . .

كلهن يحيدن نفس الاسلوب . . "فوا . . فوا . . فوا . . فوا . . فوا . . " والنارفى رأسى . . عدت أصفعها . . تصرخ . . أصفع تصرخ . . أصفع تصرخ . . صارت معاركنا ملحمة الحياة الزوجية . . .

عاودت الأفق النقطة السوداء . . تقترب تتضح الأجنحة المخيفة :

"فوا . . فوا . . فوا . . فوا . . "

و . . يحوم . . يدور . . . تثمر أقبح سيمفونية نشاز . . .

يداي تعتصران جبهتى والعرق . أستدير إلى الخلف أعود . . وجهها بدا في الأفق . . أمقتها . . قدمى في حركة تحمل معنى . . تقذف "فردة الشبشب" الوحيدة . بعدها . . الإرتياح شعورى . . .

لكن البقايا في النفس . . وخزمؤلم . . أستجدى النسيان . حركة عينىّ تقف عند الرف الخاوي . دائمًا أحطم الزجاجات، التى أفزع

منها . أتعثر أحيانا في بقاياها . . تصنع جرحا . . تسمع ألمى . . .

" فوا . . فوا . . فوا . . فوا . . "

فترة طويلة يذوب العمر . وشعرت أنني حافي القدمين .

" فوا . . فوا . . فوا . . فوا . . "

" فردة الشبشب " على وجهها فوق بلاطة سوداء . . يقال . فأل سيئ . . البلاطة السوداء ـ للمرة الأولى ألاحظ ـ من الجهات الأربع حولها بلاط أبيض . . تذكرنى بالرقعة الشطرنجية . الإختلاف في التنسيق . . ترى ما عدد البلاطات؟ . . ذات مرة حاولت احصاء درج السلم . . المسافة من الأرض حتى الدور الخامس . عدد " القلبات " اثنان لكل طابق . كلا . . اثنتان لا تكفيان .

أتألم . . صفا أسنانى يمارسان طحن الأظافر .

في البيت المقابل حتى الدور الرابع . بالكاد يحتاج ثمانى قلبات . ومدخل الباب .

آه . . . كم أتسلقها إليها . حين تفتح لى كنصف عارية . . أنقض على النصف الآخر . . .

دائمًا تُصلب أحلامى أمام " البلكون " المغلق .

أف . . شيء قاس عندما لا تكون " فيفي " هنا .

هي الأخرى تخدع . و . . أسكت . . فلكل شئ أجر . لكنى لم استطع الخضوع . . ويتكسر زجاج الصورة شيئًا فشيئًا . .

سيقول : سقط حين كان يتغزل في صدرها . لحظاته معها قريبة . أحيانًا مؤلمة . . طفل هو حين ينكمش عاريا . . يملؤه البكاء أمام

عريها . . لكن سيصفعها عندما تعود . . ليست عند أمها المريضة كما سردت له . . :

كلكن وباء . .

" فوا . . فوا . . فوا . . فوا . . "

الأجنحة تلطم حواف النافذة . الغراب الكئيب يثابر . . نحوى يتحرك . . محاولته الانقضاض علىّ . . أتلفّت بحثا . . أى شيء أدافع به عن نفسى . . وبحذر أقترب من النافذة . أراه بعيداً جداً . . أولاً شيء هناك . . .

تُرى هل قالت لزوجها أم لاحظ شيئا؟ . . "البلكون" ظل مغلقًا منذ "نشرت" بالأمس ملابسها الداخلية . . اتستفزك؟ . . أظل أحدق . . فترة أمل ، وأعتصرالهواء .

في "هيستريا" . . أرتمى على الفراش . الصورة فوق الجدار نالت لكلمة . . أكسر جزءاً من الزجاج .

آه . . خذلتنى فتاتى . . الحب يخفى أشياء كثيرة نكرهها . . الباب عاودته الطرقات . . خلف الباب لم أجد شيئا . . عضلات جسدى تخذلنى . . استند على "الدرابزين" . . فترة لاأعرف مداها . . ظللت مكانى .

حين عاودت التأمل في الصمت الصاعد والنازل صادفت طفلة في السابعة .

الأنثى في البيت المقابل تصعد الدرج إلىّ . . خلف الباب المغلق ستفتح لي كنوزها . . عيناى تنتقلان بين الطفلة . . ابحث عن شفتين

لها . . وتلوح اليقظة، وتخجل رغبتى . . أكاد أن أسحق رأسى . . فكرة القفز داخل متوازى المستطيلات سيمفونية لحظات .

لا شك أن المسافة بعيدة، والهوة عميقة و . . تحولت أحصى الدرج . . الحجرة تضيق . . مشدود أنا بين الجدران . . لا أعتقد إننى شاذ حين روادتنى فكرة عد الهواء .

العود الناحل برز بجوار "ماسور" ملتصق بارتفاع المبنى . حركة النبات، الشاحب، الترددية مصدرها الهواء . . العد الآن ليس إعجازاً . محاولتى تفتر . . الحركة تخبو . . الليل يتكاثف . . شعورى مركزية الظلام داخلى .

عيناى تغادران النافذة . . جولتى بين النجوم توتر . فكرة الإحصاء تعاودنى والحيرة . . من أين البدء . ؟ . . .

هذا واحد، اثنان، ثلاثة، عشرة، عشرون، خمسون، مائة، ثلاثمائة، مليون، مليون، الملايين، ملايين، الملايين . .

رأسي ينضغط بين أصابعى . الرغبة في إطلاق حنجرتى . أرتخى على الفراش . . ألهث . . أجهش بكاء . تمر فترة احترافي بلا رائحة . . صرختى بلا صدى .

النافذة تعاود الأزيز . . قطع الزجاج يتوالى سقوطها . والإطار المصلوب يتأرجح . . الظلام يتجمد . أرتطم به . حجرتى تضيق على . عينا زوجتى فجوتان لا لتهامى . . صفعتى مدير المصلحة مازالت مطروحة أمامة، الدولاب الضخم ـ المتداعى تحت آلاف الدوسيهات المتربة والمهترئة عملاق يتحرك قليلاً قليلاً . . أنسحق تحتة . . فوق بلاط الغرفة .

أنتقض لاهثا إلى زر الكهرباء.

ما كادت تستقر يدي أغمضت عيني.. تنفست بعمق.. حين فتحتهما واجهتا.. "اليومية" المصلوبة فوق الجدران.

هنا تذكرتها.. آه.. ورقة ما قبل اليوم بخمس مازالت. بعصبية أجذبها واحدة تلو الأخرى، في النهاية تترك بقايا شبه مثلثة عند القاعدة.. أزيلها، محاولتى تترك خيط متعرجا، وأنثنى لأزيل ورقة الأمس. الرابع والعشرين.. عقبها تكرار لها.. بنرفزة أزيلها.. أجد ورقة اليوم بلا أرقام.. و.. يبطؤ كل شئ.. يشلمنى سكون.. اعتقادى أشياء كثيرة لم أفهمها.

بكلتا يدى أعتصر رأسى.. أضغطه في الفراش. نعاودنى الرغبة أن أنهشه.. أظافرى غير المنتظمة.. أغرسها بين الشعر والجلد.

ومن فترة لأخرى أنتبه... أسنانى تطحن أظافرى.

محاولة الإنقاذ داخلها صوت.. صديقتي تنبش باب وحدتى.. في إلحاح تصدر المواء.

توزعت نظراتى في الآركان... لم أجد حتى البقايا لأتركها لها..

***

(4)

" . . إن كل همه أن يبتعد عن هذة الأرض . . والـتراب . . الـذي كانت زوجتة بطبيعتها مشدودة إلية .

فهى كان بعيدا ـ حقا ـ حتى لم يدرك "هناء" في الوقت الملائم؟"

الصعود إلى أسفل

"برجالاتك . . برجالاتك . . حلقة دهب في . . " ثم رنين دقـات الهون العصبية ورائحة الشمع المصهور . .اختلطت قرفعة عصا "عـم حسين" الغليظة، وهى تدفع الأطفال الـذين تجمهـروا في صـخب . . يحاولون اقتحام باب العمارة . هذا كان في البداية . . لكن بعد لحظات تحولوا عن محاولـة الـدخول إلى إعـلان مظـاهرة صـاخبة علـى "عـم حسين" . . فيصبح الرجاء ألفاظـًا نابية . . تسبة وتلعنة، وكان مجـرد أن يرفع عصاه في وجههم صاخبا لاعنا . . معناه إعلان حرب شـعواء عليه . . فلا تمضي دقائق حتـى يتحـول مـدخل العمـارة إلى صـندوق قمامة من حجارة وقراطيس التراب التي تنهال من كل جانب . .

لذا في هذه اللحظة آثر السلام، واكتفى بطردهم، من وقت لآخـر بعصاه الغليظة . . التي صـمدت كارهـة تحـت ثقـل جـسدة . . أثنـاء مسيرته، أو خلال صعودة حتى نهايـة الـدرج حيـث يـأوى . . بينمـا تتخطف عيناه نظرات إلى رقعة السماء عاد، ويأخـذه الاعجـاب، إلى

مجلسه القريب من الباب . . حيث يجلس، وقد تدلت ساقاه من فوق أغرب مقعد خشبى في تاريخ حياة البوابين! . . فلولا هيكله الفارع لاحتاج درجا يتسلقه حتى يمكنه من الجلوس.

ها هو قد جلس تتكئ ذراعه الشوهاء على عصاه الهرمة . . بينما تواصل عيناه رحلتهما إلى صفحة السماء المرقشة . . فلا يزال ينعكس طواف أسراب الحمام . . تحوّم جماعات . . ثم تنسحب حتى تختفى عن عينيه اللتين تواصلان الرحلة، وتلقيان نظراته إلى أسفل حيث قاعدة خشبية غريبة ترتفع بالمقعد عن أرض المدخل . .

وانطلقت النظرات الأسفنجية في خط عمودى . . تصطدم بالسقف القريب من رأسه وقد بدت أنها تحاول اختراقه، أو سترتطم به عما قليل . . فتنطبق عمامته الحلوزنية الشكل.

إنه يود في قرارة نفسه ألاّ يكون شئ فوق رأسه غير السماء . .

وكان كل من رآه في مجلسه يدهش لأمره، وقد يأخذه الضحك، وربما تراوده في رشاده الظنون. أما إذا كان المقعد خاويًا منه . . فلا شك أن الحيرة تمتلك وجدان الناظر إليه. وقد يذهب في التأويل المذاهب. وبرغم ذلك فكل من عرف "عم حسين" سواء من سكان العمارة أو الجيران . . فقد إثارة الضحك وغرابته لطول ماتعودوا منه تلك الحال . .

ولعل منهم من حاول أن يزيل وجه العجيب. لكن صمته الدائم وعزلته عن محادثة الآخرين . . جعلا أمر استدراجه عسيرا . .

والآن حملت قسمات الرجل علامات الضيق، بعد ما صارت السماء ملساء تماما . .

وتحركت المسبحة "تـك . . تـك . . تـك" بـصوت يختنـق وسـط دبيب الأطفال بالداخل، وعبارات "برجالاتك . . برجالاتـك . . "، ثم ضجيج "الهون" . . و"تسمعي كلام أمك . . تستاهلى . . " ومـن وسط هذا الخضم يسترق الأطفال إليه النظرات وفى أيـديهم الـشموع بذبالتها الباهتة في ضوء النهار . وحيث يتأكدون أنه رأهم يندفعون إلى الشقة تاركين وراهم سحب الـدخان، تحمـل الى أنفـه رائحـة الـشمع المنصهر، وإذا بوجه " عم حسين " تتجمع خيوطه الـسمراء المتـشعبة لينعكس عليها أثر كل ذلك . وتترجم مدى الضيق الذي يشعره ويؤيد النظرات الغريبة التى تلمع بها عيناه . .

هذا بينما الصغار بالشارع يعاودون الزحف، ليقتحموا الباب بعـد مـا اطمـأنوا إلى سـكون العـصا الغليظـة، وانـشغال اليـد الأخـرى بالمسبحة . لكن اليد الخامدة عاودت الحياة . . مات الزحـف بالخـارج، وانصفق باب الشقة في ضجة، وعادت السكينة إلى وعيها . .

ظل "عم حسين" جامداً في مكانة . . لكن الحركـة كانـت تتخلـل خلايـا جـسده العجـوز . . تتجـاوب كيانـه في ذبذبـة . . تـصل إلى شفتيه، فترك تمتمة مبهمة . . تتصادم بينهمـا، وقـد تبلـغ عينيـه وهمـا تريدان الانطلاق فراراً من نظراتـه المبعثـرة، ومن وراء البـاب الموصـد أطل الطريق . . السماء بدت وراء القضبان المتشابكة قـد أحيـل بينهـا وبين مايتجاوب اصداء نفسه، وجسده الفارغ علـى المقعـد في محاولـة ليصل بها بين السقف والأرض دون أن يدري . .

وانفتح الباب مرة أخرى، وانفلتت الأصوات منشدة :

ـ "برجالاتك . . برجالاتـك . . حلقـة دهـب فـى . . " ثـم رنـين

الهون ورائحة الشمع المحروق تكاد تخنقه، والاصوات تملأ أذنيه . . ففتح العينين ليرى الأطفال وقفوا غير بعيد من مقعده الغريب . نظراتهم تقبل عليه في استغراب ساذج، ويتقدمون في تراجع . .

كانو تحت قدميه . . سائحين أمام تمثال فرعوني . . صمد على باب المعبد . . لكن التمثال يتحرك ! . . صولجانه يهشمهم بعيدا . . لولا صوت نفذ إلى أذنيه من عالم البشر، وتقدمت إمرأة . . تضع بين يديه شيئا وتقول : " منابك ياعم حسين . . إدع لها تعيش . . "

ثم ساقت الأطفال إلى الداخل . . يرددون : " برجالاتك . . برجالاتك . . حلقة ذهب في وداناتك . . " و " الهون " يعاود ضجيجه والشمع يذوب . . رائحته نفاذة إلى أنف " عم حسين " فتعبث بقسمات وجهه، وتومض عيناه بريقا مخيفا، وجسده يختلج وتموت يده . . فتلفظ المسبحة آخر حركة لها . .

ورويدا . . فرويدا . . تحركت يده بالعصا الشوهاء . . بينما تضغط السنتان العلويتان الوحيدتان صف أسنانه السفلى ! . . العصا رفعها في الهواء وظلت معلقة فترة . . ثم تهاوت جانبه . .

لقد تمشت رغبة في كيانه . . غريبة . . مخيفة . . أن تهوى . . تهشم رأس تلك المرأة ! . . أو أحد هؤلاء الأطفال ! . . أو كلهم . . ليخمد صوتهم، وتنطفئ الشموع، وتختفى رائحة الدهن المنصهر . .

ودفع بالكيس . . فمال تحت قدميه، وأحس بمرارة، ويده تتيبس على عصاه، وماجت الكراهية في محيط نفسه . . تنصب ضاربة على سكان الطابق الأول . . حيث " السبوع " . . و . . تلك المرأة . .

" منابك يا عم حسين " . . ادع لها تعيش ! ! وعادت الخيوط

متشابكة . . تتعقد وتتداخل ناسجة شكلا مريعًا ! . . يلمع أعلاه زوج من الاعين . . فقدنا الانتباه إلى من عبر الباب خارجا تلك اللحظات . .

" منابك يا عم حسين . . أدع لها تعيش " . والتقطت أذناه صرير فتح الباب ، وأتاه تنشيد الأطفال " برجالاتك . . " ثم أنين " الهون " . . و . . رائحة الشمع المحروق . . تهاجم خياشيمه . . تلسعها . . تحرقها . . تدميها . .

ووجد نفسه تتضاءل . . داخله ينكمش حثيثا . . يصبح قزمًا معلقًا . . تملأ عينيه الدموع ! ! و . . لكن سرعان ما تبخرت ، وعادت البسمة إلى وجهه . . تتقارب خيوط أخرى ، وتتداخل تنسج ملامح الطيبة ، واذا بالدعة تغطى الوجه ويتهادى في عينيه الحنان . .

وسرت ابتسامة لوم تعرك أذنه في عتاب . " ماذا دهاك ؟ . . أتغضب ! . . أتكره ؟ هل غلبك الشر ؟ . . كدت تتبع أهواء جسدك . . تنقاد . . تسقط . . أخيراً إلى التراب . . كلا . . كلا . . وتلوح يده بالعصا في الهواء . . تطرد شيئا . . بينما يرفع قدميه أكثر فأكثر حتى يكاد يجلس القرفصاء في مكانه العالي ، وحتى بداكومة مهلهلة . . مهملة فوق أحد الأرفف . .

" عجبًا لك ! . . كدت تفقد ايمانك . . تضيع اجتهاد سنى حياتك هباء ! !

عشرون عامًا . . ثلث عمر حياته . . يوميًا يربأ بنفسه أن يدنو من التراب ، ويصق على الأرض ، وعادت نظراته إلى أسفل بالاطمئنان . . فساقاة متدليتان ولا تلمسان الأرض أبدا . ولولا

معرفته تلك الحقيقة مبكرا . . لكان هو الآخر ترابا . . توابا مثلهما . . وأن كان يعيش بين الإحياء . .

وأخذت الخيوط تتداخل . . فتنطبع المرارة والأس على وجهه ، وكاد ينطبق صدره . . و . . وجد أن من العسير عليه أن يكتم الثورة التي في داخله ، فقرر أن يتفاعل ويغضب ولكن بغير حقد ! . . ويثور لكن بدون اندفاع ! . . وينفجر ولو بغير صوت ! . . ويصق وهو ينظر إلى حيث براح تحت السلم . . حيث الظلال المنتصبة على الجدران تتحول ظلاما داكنًا في عينيه منذ أربعين عاما ، فكانت تشقه " أم هناء " ثم ترتمى إلى جانبه ، لا يستطيع في موت الليل أن يشم رائحة التراب تنبعث منها . .

كم لبث على تلك الحال ؟ . . ثم عرف الحقيقة . . بينما هى تنسل في جوف الليل من " شقة " العازب بالدور الأول !

لقد فوجئت به أمام الباب . . و . . اهتزت العمامة الحلزونية بعنف . . بينما العصا تهتز . . وتغفو حبات المسبحة . .

حاولت التراجع . . لكن الباب كان قد أغلق . . وجمد هو أمام الشيطان المندفع من داخلها يقهقة في جنون . . صارخًا في وجهه ، ويتساقط منها التراب الاسود . . ثم اندفعت الى الشارع . . ذهبت في جوف الليل ! . . و . . بقيت له " هناء " وآلامه . . وحينئذ ود أن يعمل في بيت ليس فيه دور أوّل .

ولم يجد في العمارة التالية غير " قاع السلم " . . ولا ينسى ابنته . . ساخرة دائمًا ، من فراشه الذى يكاد ينطبق السقف الخشبى عليه . . لذا فضلت افتراش الأرض . .

إن كل همه الابتعاد عن هذه الأرض، والتراب الذى كانت زوجته بطبعيتها مشدودة إليه. فهل كان سعيداً ـ حقًا ـ حتى لم يدرك "هناء" في الوقت الملائم؟..

لقد أكلتها النار فجأة؟.. وفضّل أن يقول مثل الناس: تفجر فيها "الوابور".. وهكذا دفنت كومة من التراب.. يحتضن بينه ترابًا مجهولا.. لم يدرك الحياة بعد...

ومع تنهيدة عميقة تفرقت الخيوط.. تشد أطرافها ابتسامة أسى تغطى ملامح وجهه.. يعقبها ستار الماضى الذى لايعرف أحد ـ هنا ـ عنة شيئا، أو عنه غير أن "عم حسين" البواب.. جاءهم وقد فقد في عينيه كل شئ في دنياهم معناه.. حتى هم.. حين ينظر إليهم فبلا معنى.. إلا أن يكونوا من غير سكان الطابق الأول. إنه في أحيان كثيرة لم يستطع أن يكن لهم جميعا الاحترام الصادق، وإنه سعيد لكونه هناك بأعلى.. فوق الدور الرابع. فتواجد سُكْناه أعلى الحاج رمضان مما يجعله في المكان الملائم.. فوق الجميع!.. لكن هل يستطيع أن يبدأ من جديد..؟!

والآن يا عم "حسين".. عليك أن تفعل ما أعتدت.. فلتصعد إلى السطح.. قبيل أن يهدأوا مع الغروب.. فتضطر أن تقف محييا لهم..

وعلى الفور بادر يغادر قاعدة التمثال الجرانيتى، ولم يعبأ بالكيس الذي داستة قدمه، وصار من بعده زحف الصغار من الخارج...

وبدأ يصعد الدرج.. تلسع أنفه رائحة الشمع المنصهر فيقشعر جسده، ولكن يمضي أمام شقةً ـ الدور الأول.. يريد أن يحرس

أصوات الصغار . . بينما يتردد : "برجالاتك . . برجالاتك . . " وترتفع رنات الهون فى تحدقاس . . .

ومر بالشقة المقابلة لها سريعا ، ولم يرفع أصابعه عن أذنيه . . حتى سقطت العصا من يده مواصلاً الصعود . . أجل . . دائما الصعود شاق ! . . لكنك ستصعد لتبتعد عن المادة ! . . ستقترب من النور . . فلا توجد أبدًا قبور معلقة في الهواء . .

. . . مازال هناك دوران . . ثم يدرك ملجأه ، . . حيث يكون مثل الحمام الطليق ، وفوق الجميع . ومع وقع خطاه لمعت عيناه ببريق غريب . . أن يمربة قبيل . . لم يزايلهما الا ليتربص نظرات مشمئزة ، وبصق في وجة الباب . . مؤملا أن يمر بة قبيل أن يتفرج عن فؤاد "بك" . . كما يجب أن يحبيه واقفا عند مروره خارجًا ، ذلك رمز الرجس والدنس كلما مر بشقة صاعداً إلى السطح ، فلم تفت عيناه تلك المرأة التى تغادره مع الفجر . . .

وقفزت خطاه ماتبقى من الدرج . . حتى وجد نفسه يشرف على الطابق الرابع . . حيث يقطن الحاج رمضان . . .

ويشعر بنسيم الراحة ينساب إلى جوانحه وتتحرك أصابعه . . حيث تأثير موسيقى يشجيه : "تك . . تك . . ترك . . تك . . ترك" يود لو صادفه الآن خارجًا . . فيباله سلامًا . . لكنه الآن على سفره . وفركت يداه المسبحة . . قرّبها إلى أنفه . . إنها من بركة "الحجاز" . . أهداها إليه الحاج رمضان . وعلت أساريره أبتسامة السعادة .

بلا شك محظوظ أن يكون مأواه فوق ذلك الرجل الصالح ، وزوجته ذات السمات التقية الصالحة . . لكم أشاد الحاج بها أمامه .

وانفردت خطوط وجهه تنسج الارتياح، الذى لم يثبت طـويلا . . بل حلّت محل علامات التأذى، فأسرع ينفض الغبار الذى علق براحة يده من "الدرابزين" البادى تحت غلالةرقيقة منه .

وردد: دائما التراب . . إنـه يحـاول ملاحقـة المـرء . . لكـن . . لا يعتقد أنـة سـيعلو كـثير ا . وجـذب التفاتـه صـوت انفتـاح بـاب . . توقفت نظراته على شقة "الحاج رمـصان" . . لكـن شـد عينيـه بـاب الشقة المقابلة . . مـصدر الـصوت . . ينفـتح بـبطء، وقبيـل أن يرفـع نظراته . . رأى زوجة "الحاج" تهرول خارجة تعدل شعرها الثائر . . بينما ينغلق الباب ثانية على شباب في الثلاثين . . بغير زوجة . . .

ظل مشدوها دقائق . . كان كل شئ حوله مظلمًا . . لا يدرك كـم ظل مكانه . . جامدًا حتى فوجيء بدقات "الهون" توقظة . . تلاحقه صارخة، ورائحة الشمع المنـصهر تتـصاعد إلى الطـابق الأخـير تلفـح خياشيمة، وضجيج الأطفال يقترب منه . . .

بتثاقل . . جمع أشتات نفسه . . إستدار ينزل درجات السلم . . .

***

(5)

قال لى : "لم أعد أفهمك" ونحن في مكان محدود . . كلما اقتربنا أشعر بالهوة . . من بعيد أشياء كثيرة نسقطها . . لا نكاد نرى غير المرغوب . .

ما بعد الليلة الأولى

أنا لا أعتقد انك ستفعل معي شيئا . .

وحادت برأسها . . فتوقفت مسيرة شفتّي إليها . . ثم تحركتا تكشفان خبايا صدرى :

ـ تُراك لماذا جئت إذن . . ؟

عشش الصمت لحظة . . ألمح في عينيه صرخات . . ثم . . الحيرة والكآبة . وبرفق . . ابعدت يده من فوق صدري . . وتنفرج الشفتان :

ـ " أنا . . أحب زوجي . . حسْبنا أن تلتقي روحانا . . "

أضحكتني عبارتها ، ووجمت . . معالم وجهها يحتضنه التقلص في صمت الليل . . والضوء المنكسف . .

ـ لا أخا لك تلميذة مدارس . . ولا بمراهقة أنت . . ماتسمينه بذلك خيال في خيال . . فى خيال . . .

لا يخلو من قسوة . . مازالت تتصل ضحكته . . تبتلغ قدرتي على المواجهة .

ـ أشياء كثيرة لم تتعلميها بعد . . .

ـ أنا لست واحدة منهن .

ـ أيضًا . . لست واحداً منهم .

يبدأ مطاردة رقيقة . . حين التصق بصدرى صدته برقة :

ـ لماذا لا تصدق . . أنا أحبه .

أحقا . . بماذا أسمى ترددي؟ . . هل شبح مايسمى (خيانة) يزاحم الرؤية؟؟ . .

ـ بلا شك أنت لذيذة . . تغرينى النساء اللاتى يؤكلن بصعوبة وبطء .

أكيد . . لست أنا السبب . . حاولت الكثير . . أراق كرامتى . . صدى صفعاته في أذنىّ . . و . . .

لم يكن يتلهف على كهذا . . أنا . . لا أحب لهفة الرجال على الجسد . . لا أحترم هذا النوع . . لكننى وددت أن يفعل . . أن يجرجرنى من الشعر . . يعرينى . . يشدنى قسراً . . ومثل كل النساء ـ بغباء ـ إعتقدت أن خارج البيت إمرأة . . أستعيدني من بين شفتيه . لم يكن يفهمنى . . يرانى بمنطقه هو . . أتكون المشكلة عندى؟ . . كلا . . هو يتعمد هدمى . . العقبة . . ذلك الحب القديم الأول ـ الخدعة الكبرى ـ يخفى أشياء نكرهها . . الكثير أدركته بعد الليلة الأولى . .

قال لى : لم أعد أفهمك و نحن في مكان محدود . . كلما اقتربنا أشعر بالهوة . من بعيد أشياء كثيرة نسقطها . لا نكاد نرى غير

المرغوب . .

ـ دعى يدى . . هدفى خلق وقت سعيد .

قسراً تنسل . . و . . يدى تتشيث . .

ـ كلاّ . . انتظر . . أريد أن تفهمني . . لست من هؤلاء .

ـ وأنا لست من أنصار الاغانى المعادة .

آه ياله من قاس إنه مثله . . لا أحد يريد أن يفهمنى . أريد أن أقول ويسمع لى .

ـ ولكن . . كما تشائين . . إذا كان هذا ما يرحك .

يبدو أنى تسرعت . . إنه يتراجع . . يده تتخلى عن المحاولة .

ـ أنا لى قصة

ـ أعرف ذلك

عيناى تقفزان إلى وجهه . . ابتسامته تتحول إلى ضحكة رنتها الخبث :

ـ دائما ألتقي بصاحبات القصص .

وأردف ذلك حركة رأسه . . تعنى شيئا أكرهه .

الآخر يطل ثانية؟ . . أطبيعة واحدة تجمع الرجال؟

ـ إنني أستمع إليك . . أحب أن أستمع .

اقتربت منه . . أراحتني الكلمات . . بذلك جذبني في الأيام السابقة وتسلطت نظراتي عليه . . توهّج الثقاب في ضوء (الأباجورة) الخافت، كشف نصف وجهه بخط مائل الظلال . . كانت عين تبرق . . المعنى لا افهمه . . والأخرى فارغة . . يضايقني سطح الماء

الراكد . .

ـ سيجارة؟

ـ لا أدخن . . سجارتى (فى) . .

ـ لا أفهم . .

يقول انه لم يفهم . . رجل شجاع أن يعترف . . زوجي يتهمني دائمًا بالجهل، وأنا محقة في الكثير . . منذ الأيام الأولى يحاول أن يثبت إنه عالم بالأشياء . . كل الأشياء . . كنت أسعد بذلك . . ثم اكتشف مؤخراً أننى فقدت ذاتى . .

ـ سيجارتي . . هي أنا . أدخن نفسي . . كل داخلى . .

ـ وهكذا تحترقين . .

سريع الفهم . . هكذا الرجل المريح .

في الأيام الأولى . . صرنا نبذل خيوطًا للحديث . . سألنى كثيراً عن حياتى قبله . . يقصد تلك الحياة . . .

لم أنكر فهمي . . أجبته بصراحة المحبين الخلصاء .

ـ هي مرة . . وهو شاب خجول . . أعتقد إنة مات سريعاً حين عرفتك . . لم أعد أذكر . . ولم أقل : "وأنت؟"

وسكت . . فقط عن الكلام، وتكلمت عيناه . . في كل لحظة تلاحقانني . . لم أفهمها حينئذ . . وسألني ألف مرة "هل تحبينى" وأجبت ألف ألف مرة حتى سئمت . . و . . صرت أكتشفه يتابعنى . . حتى في حجرات المنزل . . فى دولاب الملابس . . والأدراج . . المقفلة . لم أكن أفهم حين ينقب بين الأشياء . . وراء الصور المعلقة على الحائط كذلك حقيبة . . يدى تقدم

له جوفها كل يوم . . حيئذ أدركت أنني أقف في الجانب المقابل .

ـ أمازلت تحترقين؟

هل يتابع داخلى . . ربما الصمت يغشى .

ـ أجل . . مازلت . .

ـ يبدو أنك متعبة . . سكتّ لأسمع لك . وحينئذ لا كلام . . فلأتكلم إذن .

ـ ولكن بغير جسدك . . ثم . . ضحكتي وايماءة . . أقصد يديك . .

وضحكنا . . واستمرت ضحكته وحدها . . ثم التوت في فمه بين الكلمات :

ـ ذكية أنت . . لكنك . . لم تكملى القصة بعد .

" آه . . عيناى تحتضنه . . يداى تلتفان حول يده . . مازال يذكر حديثي إليه عن قصتي . . يريد أن يستمع إليها . . إلىّ . . .

ـ هل هو الفضول؟

ـ أريد أن أعرفك أكثر .

يحاول أن يعبر إلىّ . . يجتاز أسوارى . . بذلك يعرفنى . . يفهمنى . . الآخر لم يحاول . . أدركت أننى غريبة معه وأنفاسنا ملتصقة .

ـ أتعتقدين لقاءنا العابر يكفى . . ؟

عيناى تدور ان حوله . . وحولى في ظلام الثانية صباحا .

مُصر أن يصل إلىّ . . لا يضيقه أن يسمع لى . . لكن . . ماذا أقول . . المدينة غير متسعة ، وقد يصل إلى حقيقة أخرى .

ـ أنا لست إمرأة طريق . . هل تصدق؟

ـ وأنت بجانبي لا أناقش ذلك . . وما قصتك . . ؟

الآخر لم يحاول . . الرد جاهز دائما . . الكلمات صفقعة لى .

لم أعقل مطلقا كيف يثابر ، ويغادر عمله مبكـرًا ليتتبـع خطـوات عودتي . . .

لا يكفـى باصـطحابي في الـصباح . . سـعدت بـذلك في البدايـة ، والزميلات يحسدننى . . لكن . . اكتشافى خنق شبح الأفكار الجميلة .

موقف زملائى همْس . . عيون الـبعض رثـاء . . ثـم ريبـة . ويحمـر وجهى ، ولم أكن أستطيع محادثـة أحـد مـن أن يفهمنـى شـخص . . صرت أتنجب أن أناقش . . وأناقش . . حتى خشبت همس نفسى .

برودة تفاجئ مجلسى يبدو أنه ضاق بي والإنتظار . . طاردتنى عينـا صديقتى لم تظفرا بـشيء . . حينمـا همـست إلىّ . . كنـت الـصمت وهربت . . .

أشعر به يعود . . يجلس منفردًا . . .

ـ لماذا ابتعدت . ؟ !

ـ لا شيء غير العودة إليك . . .

أعتصُر رأسي . . لا أفهـم مـا وراء العبـارة؟ . . يبـدو أن عـدوى زوجي أصابتنى . . بلاشك في هذا كلام الجميل . . أكيد . . لا يقـصد معي سيئًا .

أبعد صمته عن دائرة وجودى .

ـ لكن أتهمك قصتى؟؟

ـ إنني لا أشبع أحيانًا .

إما أن يكون عاقلاً جدًا أو شاذًا جدًا .

ـ إعتقادى . . حياتى بدأت بمأساة . . هى إنني وُلدت . . .

الآخر مازال يؤثر في . . هو يردد دائمًا : ما أفضل أن يولد الإنسان ميتا . . يعتقد أنه سيكون عظيمًا ، واعتقدت أنى المرأة التي وراءه . . ولكنه يتحرك فقط في فراغ الأربعة جدران ، من داخل تابوته يرسل كلامًا كثيراً . . عن نفسة . . وعما سيكون . . .

كان الزورق بلا مجداف . . وطائرٌ يحلّق بلا أجنحة . . ولم يسمع لحنه قط . . إعتقادى أنى أعدو من نفسي ـ وفقد اليقين . . فلا يجوز الفضاء ولا يغادر الشاطئ . . !

والدتي . . تبثني خبرة الزمن : " كونى سيدة عاقلة . . أنه زوجك . . تطأطئ . . الأيام تمضى . . تأكل معها المشكلات .

أبى . . يربّت على كتفى : كيف؟ . . لا . . لا ياهدى . يجب أن يتنازل أحدكما للثاني . . جربى . . ستتأكدين انك لم تكونى مقفرة الفهم . . .

آه . . واستمر ينقب فى . . يبدو أن فضاء سمائى المقفرة . . بحْرى الجفاف ، وإلاّ ما ثار . . وبعد كل ملحمة صاخبة من طرف واحد ، فدورى الصمت . . تجئ عبارته :

ـ ما أفضل أن أولد ميتًا .

ـ ولم أعد أفهم . . ولم أحاول .

ـ لمْ تقولى . . كيف كانت مأساتك . . ؟

ـ أبدو أمام نفسى كمن تستيقظ . وأن هناك كلاما يوجهه إلى . . و . .

واستدرك بسرعة :

ـ آه . . أنت مازلت تنتظر البقية . .

ـ وما زلت أدخن السجائر .

جميل أن يظل الرجل ينصت لأمرأة تتكلم عن نفسها .

ـ أتريد قصتى . . هكذا هى . . والدى كان كل شيء للأم المريضة واخوتى الخمسة . . في حادث مات . . حياتة كانت داخل كل يوم . . ثم صرنا إلى العاصفة .

ماذا أقول بعد ذلك . . هل أستطيع الاستمرار . . ؟

ـ ثم ماذا؟ . . تحاولين التذكر . . أم شيء آخر . . ؟

. . رجل ليس سهلا . لأختنق ابتسامتي . . يحاول أن يكتشف ورقتى . يجب أن أكمل النسيج . تكون القصة معقولة . . أيجب أن أقول كل شئ أنا لن أطالب في النهاية بشيء .

ـ ثم ماذا . . أحب أن تكملى . .

ـ وخلال ذلك . . تعرفت بك طبعا .

ـ . . . . . .

ـ . . . . . .

ثم سحق الصمت ـ المؤكد إنه مفتعل ـ قوله في دائرة الهمس :

ـ عادة يعقبُ السكون حركة . .

أصبح بجانبي تماما . . حدّق في وجهي طويلاً . . يداه إنسابتا إلى خصري . . يضيق حولي ذراعيه .

محاولتي أن أقبل عليه فاشلة.

كيف ابتسم حين أقبّل شفتيه.. وضحكت.. تمططت ضحكتي.. جمدت حركته فترة.. بعدها ابتعد ليجلس مستنداً غير بعيد عنى.. وأثبت الصمت من جديد وجوده.

كلانا.. نظر إلى الآخر والنظرة واحدة.. تجمدت فترة لا تقاس بالزمن المعروف.. دائمًا يحدث مع الآخر.

أيام كثيرة لا نتحادث.. رصيدنا المتغير للنقص.. بضع كلمات سقيمة تصنعها الحجرة.. إن لم تسرع بالتطاير من النافذة.. أو تتبعثر بين الأشياء المستعملة في جوانب المكان.

كان تافها.. ذات صباح حمل إلى ما أسماه مفاجأة.. صحبني داخل مكان العمل.. قائلاً:

ـ مكتبي في الحجرة المجاورة.. عملت "بدل".. و.. و..

تطايرت القدرة على تمييز الشعور عندي.. استمر ذلك، وكلمات لزملائي ونظرات منى ميتة.. أكثر من مرة توجهت إلى "التواليت" اختلط نشيجي بماء الصنبور.. يصفع جدار الحوض الثلجي اللون.

أحسست بكل شيء حولي أملس تماما.. لاشيء أتشبث به.. أتقي سقطة الدوار.. و.. ربما تقيأت عدة مرات.

أيام قليلة.. وتجدد بيننا الحديث.. السائد فيه لغة الصفعات لى. وتغير طريق العودة من العمل..

فى بيتنا.. نظرات من حولى غريبة حينًا.. تعنى حينًا أننى مذنبة. ولم تقنعهم كلماتي.. هم أيضاً لا يسمعون إلىّ...

خدر عجيب يسرى فى . . رغبة تتمشى إلى . . هو يقترب ثانية . . محاولة شفتيه واصلت حتى عنقى .

والتهب كل شئ . . كاد . . لكنى أنسج محاولة لأستعيد نفسى .

ـ أتذكر ذلك الشئ . . ؟

ـ ما هو المقصود . . ؟

ـ معذرة . . لم أخرج بعد من داخلى . . محاولتى بطيئة . . سأتكلم كثيرا ً قبل أن أفعل شيئا .

ـ وأنا . . سأسمع لك دائما .

هل يجيد عرض الطعم؟؟

ـ إما أن تكون طيباً جداً . . أو . .

ـ أفضّل ما سمعت .

كلانا لم يتمالك . . في وقت واحد . . انطلقت بسمتان . . فيهما عذوبة الحقيقة والخجل . . معركتى الأولى مع النفس . . فلمن النصر . ؟ . .

رأيت أن أجرّب . . واستسلم للتجربة .

حين اتبعني أحدهم كانت معاكسته جريئة . . وأتجة بى إلى " كازينو آمون " . . طارحني الغرام . . تكلم كثيراً . . ثرثر كثيراً ، فأعطيته موعداً لم يحدث قط . .

ـ أنتَ . . فقط أنت . . منذ أول لقاء . . كلماتك أذكرها :

" زهقان من نفسي . . مللت صوتي والألفاظ . . حفظت كلماتي . . الجديد أنت . . قولي . . أطلعينى على عالمك . . أدخلينى

إليه "

وخشيت أن تكون رحلة الخائنة .

خط الظل المائل اختفى . . عيناه إتحدتًا البريق . . إستند تمامًا على ظهر المقعد وقد أشعل سيجارة .

أنهض . . دافع داخلى يجعلنى أفعل . . أسبق السيجارة إلى شفتيه . . بعد قليل أدركت أننى اتصرف بعصبية . . ثم رددت :

ـ أمور الزواج محببة ـ أحيانا ـ بين غير المتزوجين . . أتعتقد معى؟

ـ . . . . . .

بحركة شفتين ـ فقط ـ إتقدت السيجارة ـ ربما يعتبر ردًا ـ علىّ أن أفهم، وأصبحت عيناه نظرات قلقة . . .

سُحب الدخان تغلفنى وأنا ممددة . . سقف الحجرة الناصع تدريجيًا يبتعد . . أملس هو . . سيلفظني إذا ما حاولت التشبث به .

***

(6)

. . . "شعرت بهزة تتماشى تحت جلدي" . . ثم . . رغبة في الانسحاب بعيداً هذا المكان . .

"وحيث ينفذ من الباب المغلق أصوات عصبية . . مكتومة . . تخنقها حركات غير مرئية" . .

أنّات الطيور

" . . إسمك؟ . . و . . أنت . . أنت . . أنت . . ما اسمك؟ . . "

يبدولى أنها تكلمت . . عيناها تسألان . . أبتسامها . . تكشف عن شرودى . . حين عادت عيناي الحائرتان قفزاً إليها . . وردت أنا :

ـ " ماذا؟ . . تتكلمين؟ . . "

ـ " ما اسمك؟ . . "

ـ آه . . وشعرت بارتياح . . وأجبت : "فوزي . . "

وانتقلت بناظرّى ، محاولة هروب إلى شقيقتها ـ نادية ـ ابنة السادسة عمراً . . فهى الآن تعابثا بينما "سامية" تحضها في طفولة وجلة على السكون . وبدت كأنها تقوم بشئ تعودته . . و . . تؤديه رغما عنها . . هى تنصت لأقل حركة تصدر وراء الباب الخارجى . .

لا شك . . "عزت" نبهها إلى ضرورة ذلك . . فحديثها

إلىّ . . همس حذر . . وعجبت من ابنة التاسعة . . كلما حملت عيناى ما برأسي . . أصطدم بشفتين لا يفارقهما ابتسام . . متربص . . متحفز . . كأنها تعلم مسبقاً بخواطرى . .

وشعرت بهزة تتماشى تحت جلدي . . ثم . . رغبة في الإنسحاب . . بعيداً من هذا المكان ، وحيث تنفذ من الباب المغلق أصوات عصبية مكتومة . . تحنقها حركات غير مرئية . .

وعنها تحولت عيناى لتصطدما بالطفلة الكبرى . . بابتسامتها ! . . هي من سماتها . . أم علامة خجل . . تعلقت للأبد بشفتيها . . تواجه سؤالاً . . أتحاشاه عن . . .

و . . لم أحاول . . فبالداخل الجواب ! . . آه ! . . نادية أنت في المدرسة ؟ . . ماذا ؟ . . تقولين في السنة الثالثة ؟ ! . . أنظر إليها خلسةَ . . أخشى أن ألتقي بنظرتها . . ابتسامتها المحيرة . . وتكاد تسألني بدورها ـ بذلك يشير بريق عينها . . وقد تعلقت بوجهي نظراتها . . وشفتاها تتحركان : " أنت . . ت . . ا . . ـا . . مد . . رس . . ؟ . . " بلا وعى : " آه . . نعم . . " وعادت تسأل : " في أي مدرسة ؟ ! . . "

غرقت داخل نفسي . . موجات الصمت المريب تحيطنى . . تدور . . تدوّم . . أشعر أنى أهبط . . و . . أهبط . . إلى أين ؟ ! !

أتنبه إلى حركة ! . . عزت . . يتهاك بباب الحجرة . . يسده وتمر الأخرى " إلى التواليت " . . هل أمرق إلى الخارج ! !

الطفلة . . صامتة . . ساكنة . . كذلك الصغرى . . لكنها تكسر ترددها . . والابتسامة أكثر أتساعا " نسكن في شارع الكتاتني " . . آه .

الآن تذكرت . . جواب لسؤال سابق مهتز . . اختلط بمحاولات الهروب . .

عزت . . يلوّح لي : " هيا . . . " و . . وجدتني أمام الفراش وجها الطفلتين ما زالا معلقين أمامي و . . الابتسامة . . . . تتسع . . تكبر . . تحيطني . . تلتف حول عنقي . . ثم همس . . وقالت : " هيا . . أشياء كثيرة ينساها المرء وقتذاك ! ! "

ساءلنني : " ماذا كانت الصغيرة تقول؟ ! "

ـ " الصغيرة . . آه . . لا . . لاشئ ! . . " تصنعت ابتسامة . . .

ـ " كنا . . كنا نتفق . . "

ـ " علام؟ ! . . "

بماذا أجيب : " آه . . أجل . . "

واتسع ما بين صفى أسنانها . . وشعرت بسخافة الكلمات . . ربما لا أجد ما أقول . . وسرعان ما مضينا لننسى ذلك . . ! !

ـ " أريد أن أمضى مبكرة . . إنى مرهقة جدا . . لاأدرى . . ماذا أفعل مع رجلى . . فاليوم . . له أيضًا . .

" ثم ذهبت إلى " التواليت " . .

أحسست بالضيق . .

أجد نفسى تحت قدمى . . أووسها . . خرقة ممزقة . . أنا . . آلاف الثقوب كالغربال !

عبثًا أحاول ألملمها . . بينما تمضى . . تاركة موعدا . . ويتبعها " عزت " . . ثم الطفلتان . . و . . أهرب من زوج العيون . . و . .

الابتسامة الصغيرة تطاردنى . .

من صدري ينتفض إخطبوط غطيطه يعلو . . .

عيناه نصف المغلقتين عكرتا البياض . . تموت الابتسامة الحائرة . .

تختفى من عينى . . ويبدأ الألم . . .

***

obeikandl.com

(7)

" بالكارثة . . لابد أن أفعل شيئا . . أى شئ . . .

" يفزعني مصير إمرأة شاركتني المحنة . . إنها تنضوي في جسدي . . تريد أن تتلاشى . . ترتجف . . تصرخ . . أوضالها في حركة صراع . . "

البيوت من زجاج

في كل غرفة انتشرعبقها . . كالخدر يسرى ناسجاً سحراً أنثوباً . . ثم قالت :

ـ لا مفر لك منى . . لن نستطيع غير ما أريد . .

ومضت تطوقنى . . ينساب علينا عبر زجاج الفامية الضوء الخافت لنور الشمس . . بينما تتسلل النشوة فتعانق ولا نأبه لعيون كثيرة في الشرفات المقابلة : فهى لا ترانا . . قلت لها وقد أعجبتنا اللعبة :

ـ أنهم لا يدركون ما وراء الزجاج من ثمار التفاح . .

ضحكت في صخب وقالت :

ـ نراها ولا يرونا . .

وامتدت يدها بتفاحة مما حملتة لي . . عندما جاءت ملهوفة . . وعندنا تجرفنا أمواج الأنوثة والفحولة . . لم أستطع تجاهل

وجه " سوسن " جارتي الحسناء في الشرفة المواجهة . . كم تمنيتها . . لكنى و" رغبة" بجواري أواصل برشفات تطفئ الرغبة المحومة، وتتصل اللعبة مغرية خلف الزجاج السحري . نراهم ولا يرونا . . فها هى عينا " نوال " وجسدها الفارغ . مازالت تسدد النظرات إلى نافذتى . . تنتظر أن تنفرج عن هذة المرأة شيطانية المواهب . . فتنجح في إبعاد "سامى" زوجها من الشرفة . . بل من المنزل حتى تتفرغ لمحاولات الاصطياد . . قالت رغبة :

ـ اوكد أنك كل حياتى، منذ صرت الأرملة واعتبر نفسى إمرأة شريفة لأنى لرجل واحد أمام الله لكنى قلقة . . .

لم أجد إجابة مناسبة، وذهبت نظراتى عبر الزجاج حيث وجه "سوسن" إنها فاتنة . . لكن من طراز سيئ . . كم طالبتني بزيارة ليلية ولم أفعل . . و لاحظت "رغبة" انصرافى خارج الزجاج، في البداية جزعت وحين شعرت أنهم لا يدركون من أمرنا شيئا شاركتنى اللعبة . . حتى تجردنا، وهى تردد :

ـ أنت كل مالى أيها الرجل . . بل أعظم الرجال . . لا اعرف لماذا ذكرتنى بـ" ماجدة" التى تمنيتها زوجة بعد قصة مفعمة بالعاطفة المتأججة؟؟ . . لكنها صدمتنى . . رأت مثل أبويها أن تكون الشقة بإسمها . . فجأة في النافذة العليا وجه "نعمات" يوقف تلك الذكرى . . أسدلت خصلاتها على الكتفين . . تتركها هفهافة وتتسلط عيناها على نافذتى . . وأتعجب أكثر عندما تلح رسائلها المراهقة بمواويل الحب . . ساذجة أيتها الفتاة . . لست من يناسبك . . بدأت الشعرات البيضاء تحتل لها مكانا في رأسى . .

لست من زمني . . وعدتُ أتأمل وجه "رغبة" المحوم وشفتيها

المتورمتين، وتستسلم لمحاصرتى. إنها أسيرة لهذا الواقع.. لا تمل تكرار فلسفتها كما تفعل الآن:

ـ من يهتم أن تكون الأرملة مصدر فرح وعش سعيد.. حقا إننى هذه المرأة، ولدى معاش كبير.. أخشى إنقطاعه بزواج فاشل..

ومضت بكل حيويتها تعتصر أسيرها.. تدعونى لمزيد من العطاء.. وتهمس:

ـ إنك تسلبنى إرادتى.. لك عمرى..

ولأنها تُرضى غرورى فاستسلمت لهذا الواقع.. وأيضًا المصير؟.. قد اكتهلت السنون.. فتثاءبتْ مشاعر الحب.. لقد فات أوان الاختيار.. تجربتى مع محاولات الزواج تبدأ بأرقام أراها فلكية.. أصبحت خانة الآلآف مقومات المهر.. وغيرها لحساب الشبكة.. وهى المقومة لقائمة الأجهزة، التى صارت ضرورة المعاصرة.. ناهيك عن أسطورة السكن.. وهكذا تبوء المحاولات بالانهيار.. قلت:

ـ لدى سكنى المتواضع برغم زجاجه الارستقراطى.. إنه يهتز وأنا في غيظى، وفجأة تصرخ " رغبة " رعبا وأتجمد:

ـ أنهيار!!.. ودمار.. البيت يتساقط..

الأصوات تصم.. والزجاج يتطاير.. الشارع يشرف على الغرفة.. بل كل من في الشرفات يتفرسون في الفراش وعليه صرنا عاريين!! رؤوس حراب نارية تدمينا.. وكدنا نصعق.. "رغبة" لا تكف عن صراخ هيستيرى.. فنتمزق معاً فوق مضجع الجمر.. حولنا قطع الزجاج طعنات لعيوننا.. الآخرون ألاف الجوارح تنقف جسدينا.. أصوات تنزل بالسياط:

ـ يا للعار . . يا للفاحشة من تكون المرأة . . ؟

تقصدين الساقطة ومن هو الرجل؟

ـ بل هذا الداعر . .

ـ من الزانية؟؟ . .

ـ ومن الزاني . . ؟؟

يا للكارثة لابد أن أفعل شيئا . . أى شىء . . يفزعني مصير امرأة شاركتني المحنة . . أنها تنضوى في جسدي . . تريد أن تتلاشى . . ترتجف . . صرخ . . أوصالها في حركة صراع . . ومضيت أحجب عريها عن رماح العيون الملتهبة بالملاءة الوحيدة، وتندفع خارج غرفة الجحيم . . بينما جمدت أتلقى اللعنات والطعنات الوحشية من الجيران . . ومازالت عاريا، ويتولى انصفاق النوافذ، وتتفرج الشرفات والرؤوس بين بروز . واختفاء سيمفونية السخط هذة فرصة لرفيقتى المنهارة لتفر من جهنم . . وتنفست الصعداء . . الباب ينغلق : " رغبتة " صارت في البر الاخر من بحر الظلمات، وتنساب إلى أحاسيس الراحة بعد العذاب المميت . . لكنها دقائق . . واذا بالتفجرات تدق بابى . . تكلد تقتلعة فاذا بى أتبلد . . لا ابة لشىء بعد أن مضت " رغبة " بل يجول بذهنى مقطعًا لأغنية شائعة ثم اقترب من العين السحرية وأرصد أمام الباب وقد توالت جموع الزحف الضارى . . بداية حرب تتارية . . سيعلقون جسدك فوق باب زويلة . . أصوات مغولية تتداخل مع الطرقات العنيفة للباب . . تنادى بالقصاص . . الرجم للزانى والزانية . وأقف عاريًا خلال هذا الطوفان، والباب يكاد ينخلع خلعًا وتنهدم الأعمدة فوق رأسي . . تُرى هل ينهار الباب أمام منجنيقات الزحف الوحشى . . ؟؟!!

وأعود لأرقب مندهشًا ذلك العالم، وجسدى ينتفض رعبًا . . بينما عيناى بهلع تتنقلان على الوجوه المستأسدة . . .

وذهلت حين رصدت وجه "سهير" ــ بل هذه "سوسن" ثم "نوال" جاراتي الحسناوات المحموم ـ وتلك وجوه رجال . منكوشي الشعر وأفواه فاغرة . . آكلو لحومالبشر . . . ! !

ـ ياللفجور . . . ! !

ـ هل ضاعت الفضيلة . . ؟ . ! !

وفجأة يقع ما يحزني بل يفزعنى أكثر . . فأتبلد فزعًا . . أتجمد . . فما أراه ألان أشد فظاعة . . ياللبشاعة . . هل يعقل ذلك . . ؟ أهذا وجه "رغبة" ؟ . . حقا هو . . إنه يختلط بزحام وجوه الآخرين . . بل يبدو أكثرهم توحشًا وضراوة، وذراعًا في حركة مستمرة . . " . . تتبادلان تسديد الأحجار نحو بابى . . إنها أشدهم عنفا . . إصرارًا من كل النسوة الهائجات، ومن الرجال الجامحين في محاولات اقتلاع الباب . .

وليت الأمر اقتصر على ذلك . . فإننى أستمع إلى الصوت أخر لها . . ولأول مرة أعرفه، وها هى تواصل إطلاق القذائف الضارية متأججة بأقزع السباب . وتحثّهم :

ـ عليكم بهذا الداعر . . ارجموا الزانى . . طهّروا الحى من الإثم . .

***

(8)

. . " . . لقد قال الفيلسوف الألماني " "نيتشه" :

"إن في صدر المرأة "مارد" و"شيطان" . . وهاقد هب المارد في صدرها . . .

تُرى . . ماذا يمكن أن يفعل بها الشيطان؟!!

مارد وشيطان

"مساء الخير . . "

ومضت لحظة صمت مفاجئة باردة . وصار الجالسون جميعًا أصناما . . صمًا، بكمًا، عميًا . . فهم لا يشعرون . . !!

الأنفاس متعلقة، مختلفة . . تريد أية تظل في معاقلها محبوسة . . مخنوقة ميتة!! مرت لحظة . . وكائبة الدهر مضى على انقضاء تلك اللحظة . . ثم جاء الإيجاب . . "مساء الخير . . تفضلي" . .

وانطبقت شفتا "زينب هانم" ، الحماة، وهى تشي إلى " فتحية" زوجة إبنها بالجلوس دعاء الصمت الثقيل إلى ما كان عليه عندما دخلت عليهم . . ولكنها ظلت مالكة لعوا طفها . . وأعصابها في البسمة المرتسمة على شفتيها . . ثم التحية المقتصبة التى حيّت بها

(علية)ضرتها! والنظرة المنطوية على أكثر من معنى، والتى رشقت بها "مدحت " الزوج! أما قريبة " فريد" . . فلم تعط لة كثير اهتمام.

بنفس الجهود والبرود، الذي بدأبة الموقف ظل على حالة في الحديث المثار . . والكلمات المتبادلة في تكلف . . وكلابة الذي يجذب الخيط ويشد حبل الحديث " زينب " هانم. أما الزوج فقد جلس يفتعل عدم الاكتراث . . بل يهربمن زوجين من الأيمن المتسألة في تناحر . . بالكلام الحائر . . المنعثرمع فريد . .

أما "علية " . . الزوجة الشابة الحسناء . . فقد انقلب حالها رأساً على عقب منذ دخول "ضرتها" ! . . فبدت تتكلف كل حركة . . وكل كلمة أو بسمة لتخنق الثورة المشتعلة في صدرها . . والنار المتأججة التي تأكل في قلبها . وصارت عيناها تتنقلان حائرتين . . وأصابع يديها، التى تحركها خفية في عصبية ظاهرة، ثم ردها تحية ضرتها، ببرود كالثلج . .

هكذا أصبح الجو مكهربًا . . بارداً محرجًا . . عندما ضم المكان ضرتين . . وناهبك عن لقائهما في مكان واحد . .

وبعد وقت من الحديث الحائر المتكلف . . البارد كالثلج . . ويخفي خلفه في النفوس جمراً ملتهبا . . يخنق الصدور ويكتم الأنفاس . . محرقًا الأعصاب ـ بعد هذا الوقت هب الزوج ليخفف حدة الجو . . يخمد النار ويهدأ الأعصاب. فصحب صديقه ليفر . . لينجو بنفسه . . إلا أن "فتحية" أشارات إليه:

ـ "أريدك في أمر هام . . "

واستأذ من الجالسين ثم شدته في ذراعها ومضت ! !

جمدت "عليه" في مكانها . . أما الحماة، المحايدة دائما ـ فلم تحرك ساكنا . ولم يطل بعلي الجود . . فقد هبت من ذهولها وجمودها . كان يجب أن تفعل شيئا . . أى شئ . . فالتفتت إلى "فريد" قائلة بانفعال :

ـ (أرجو أن تصحبنى إلى المنزل . . أننن لم يكن هناك ما يمنعك) . .

ـ "في خدمتك يا هانم" . .

بدون أي تردد أجابها . . ومضى بجانبها . .

فمنذ سنوات ثلاث . . وهو يترقب اللحظة التى تركن فيها أليه . وتشعر أنها تحتاجة . . تريد مساعدتة . وهذا ما استخلص من التجائها إليه في اللحظة الراهنة . كان عالماً بذات النفوس . . بالحرس حينا . . وبالظواهرالتى أمامه حينًا آخر . .

لقد كان المرشح لزواجها . . ثم جاء قريبه ونا لها من دونه . . واقتصر أن تكون العلاقة كصداقة بينهما . . بيد أنه لم يستطع أن يكتم الرؤية فيها . . والتعطش إليها . . ! !

"وخرج من تأملاته . . وهما يسيران في طريق "الكورنيش" . . وهى بجانبه . . تكادتشتعل غيظًا . . ورأسها تنتازعه شتى الفكر . . غيظ مشتعله . . وفكر ثائر . .

لقد قال "نيتشه" : إن في صدر المرأة مارد وشيطان . . ! وهاقد هب المارد في صدرها . . يغلى بالحقد، ويفور بالغيظ . . يريد أن يد مرويحطم ! !ولم تكن في حاجة لأن تثير الشيطان؟ . . فقد كان "فريد" بما تطل به عيناه من تظرات خبيثة ملتهبة، وبما تدور في رأسه من

أفكار آثمة معبرة . . لهو الشيطان ! !

وهكذا اجتمع المارد والشيطان . . وتكلم الأخير :

ـ " علية هانم " . . لا تبتأسي . . أنا أدرك أنك تتعذبين . . لكن لا تيأسي فأجاب المارد :

ـ " وماذا تبقى لى غير اليأس . . اللهم إلا أن أفقد زمامى وأعصابى ، وأرتكب عملا طائشًا . . "

ـ " تقولى هذا . . وأمامك تتسع الحياة فتسعدين بالشباب والجمال . . فأنت شابة وجميلة . . "

ـ " نعم . . ولكن غير سعيدة . . ولن أكون مادام . . . "

ـ " أنا أفهم كل شئ ولكنك في حاجة إلى اليد ، التى تشد بيدك . . وتمضى بك إلى السعادة وزمن جميل : . . إنك في حاجة إلى همسات دافئة تسمعها أذناك وإلى ضغطة جانية تحسها يداك ، وضمة تلتمسين فيها العطف ، وذراعين تجدين بينهما الحب والهناء . . وإنسان يقف بجانبك . . يبادلك الحب دائما ولايفارقك أبدًا ليس له إلاّه وليس لك إلاه . . " تكونان شيئًا واحدًا . . بل جسدًا واحدًا . . ونفسًا واحدة . . تحيا بروح واحدة ! ! ويبدو أن حديث الشيطان وجد مكاناً في نفس المارد ! ! فقد تحولت هذه إلى نفسها الثائرة . . الحاقدة المغتاظة . . فوجدت أنها حقا في حاجة إلى كل هذا . . ولكن أين هو ؟ . . أيان تدركه ؟ . . كيف الوصول إليه ؟ ! ! !

بهذا همست شفتاها ، وبرقت عيناها ، وأجاب الشيطان بخبث :

ـ " بنظرة . . وبإشارة يمكنك العثور على ذلك كله . . "

ـ " ولكنني لا أجده إذا بحثت . . وربما أضل . . "

ـ " أتجعلينى دليلك؟ . . "

ـ " تفضل . . "

ـ " وتثقين بي حتى النهاية " . .

ـ " وهو كذلك . . "

ـ " يبدو أن دليلك كسول جداً فإنه سيختصر الطريق . . ويكُف نفسه عناء البحث . . ويضعها رهن إشارتك . . "

فالتفت إليه . . بسرعة من يفاجأ . . أو من يثب من غفوة وسبات طال أبدهما . . ورددت في سواد أبيض :

ـ " أنت . . "

ـ " أجل . . أنا . . "

في تلك اللحظة . . كان قد أوصلها المسير إلى المنزل . . فلفه الصمت حتى فتحت الباب . . ودخلا وهى غارقة في ثوبها الداكن ! ! وهنا تداركت قائلة ـ ولم تدر أن المتكلم هنا هو المارد الثائر ، الحاقد المغيظ . . حليف الشيطان الماكر الشديد :

ـ " إننى أرتاح إليك كثيراً " . .

وأنغلق الباب يحجب من ورائه الظلام .....
.....
.....
....

***

(9)

" طال صمتها . . بينما يجذب سمعي طائر يتنقل على شجرة اللبلاب المنتشرة غصونها كأشعة الشمس، ويغني بنغم رتيب ولكن . . " . . .

سراب البحر

ـ في البدء كانت النظرة . . .

وجمدت نظراته طويلا . .

هوت يده بزجاجة فارغة . . أمامه قد تحطم الكأس . .

وطفت ظلال الأسى على الأشياء، وبرغم الخمر فقد استيقظ الألم . . توتر الوعي . . ضارية عاودته ذكرى الساعات الاخيرة . .

وتتابعت كوامنه في الاندافع . . ألح عليه شريط الأحداث . .

وأسرعت . . تتابعت إليها، ثم تعلقت فجأة بها، وقبل أن يفكر كانت قد تشبثت بكل جسدها نظراته الولهى فجأة . . كادت أن تفقده، صوابه إدراكه . . تركتة كتلة ملتهبة من النار داخل الماء . .

وبالعينين اصطدمت عيناها طويلا . . رشقتها نظراته المصوّبة إليها . . اريكتها . . قيدتها . . كأنها شدت . . التفت تضيق حول جسدها، وتصرخ بالرغبة الجائحة . .

opeikandi.com

وتجفل . . تهتز . . جسمها يتورد . . يزداد احمراراً . . اشتعالا . .

امرأة أنثوية الجسد . . ثائرة الجاذبية . . على مقربة منه . . لا يفصل بينهما غير مياه البحر . . أمواجه الثائرة تنساب من حولها تأتى لتلطمه . . تحمل معها النار أذ تلطمها وقد حملت اللهفة المستعرة بداخلة، لتعتصر الجسد المتوهج تحت الشمس، والرجراج بين الموج الفائر . .

لم يدرك الا أنه يريد هذه الفتنة الطاغية . .

وكالمسيّر بدأ يتحرك . . يتجه مشدوداً إليها . . فتجد باغوها سيصل . . سيدركها . .

الأمواج تلطمه . . تدفعه . . تهدر من حوله . . لكنه يمضي . . لن يقف دونه والوصول إليها انسياب آخر رشفة حياة . .

الامواج ضارية تشده بعيداً . . يتعثر . . تكاد تسقط . .

عيناه مكبلتان بها . . نظراته عليها صُلبت . . ولها في مكانه يشتعل . . يتحرك ثم يتحشر ! . . أو ! . . لقد مضت . . يجذبها الموج قليلاً . . قليلاً خرجت إلى الشاطئ . . اختفت بين لفيف المصطافين . لم يعد يراها . .

بدون إمرأة يهواها قاس مؤرق أيها الليل . . قضاه تائهًا . . متعثراً . . لكن . . كيف أصبح كذلك . . ؟ !

إنك تعديت سن المراهقة والطيش والرعونة . . منذ زمن خضت التجربة . . ولا رئيس تلك الأيام، . لاينساها يوم كان يبدأ خطاه بائسا . . سنوات الدراسة العليا كادت تخيب . . لولا تضحيتها . . في

الحجرة النائية المتواضعة أعلى السطح . . يطل عليها في وحدتة وجه "عطيات" . . كانت تبثة الاهتمام . . مع الايام شعر أنها تعيش قصة حب . . منحته كل شئ . .

يلاطمك الموج . . المرأة الفائرة مازالت تتأرج نشوى أمامه . .

"عطيات" تماوج سلوكه معها . . لم يستطع أن يستقر ليعانق عواطفها المشوبة برغم من الأربعين التي تخطوها . .

حين حصل على "البكالوريوس" . . كان لابد من نهاية . . و"سوسن" زميلة الدراسة قد وعدها بالزواج . . ماذا يفعل؟! . . آه! . .

المرأة الأنثى تقترب منه . . تثيره . . تشدها الأمواج بعيدا . . يحاول الاقتراب . . يقترب منها . .

يوم أولى عطيات ظهره . . ظلمته "سوسن" . .

ـ "ظننتك تستطيع أن تحقق أحلامى . . البداية فيلا وسيارة . . " وهمت موجة عاتية غمرته تماماً . . أستعاد اتزانه بصعوبة . . مسح عينيه . . نظر نحو رفيقة الماء الفاتنة . . كانت الحلم الذي ذاب سريعا! . . لكن لابد أن ينجلى الليل . . لابد أن يبدأ النهار . . .

حقًا . . لقد أفقدتك السيطرة على نوازعك والأهواء . .

ها أنت تتأرّق . . تتحرق . . ضحية ـ الرؤى حدث . . يعبث بك السّراب، ولا تهدأ ثورة الرغبة المشبوبة المشتعلة في الجسد . . .

ليغادر " الكابينة " . . يمضي ويندس بين النساء في الأضواء، والموسيقى والغناء . . سينفث دخان سيجارته . . يطفئها في أجساد

الأخريات . .

الظلام يحتضنة . . تحتويه روعة السكون، ولفح وجهة النسيم البارد . . الرطب، في اتجاه الشاطئ، ويقترب منه صوت البحر . .

الأمواج هدير . . الهواء زفيف . . الاضواء تتصارع بين أذرع الظلمات . .

وعلى قيد خطوات الفحيح المنطلق الغامض . . همس جان أو أشباح . .

وأمام هذة القوة الطاغية والخضم الجبروت وقف يتأمل النفس متضائلا . .

ومضت عيناه نحو الشريط الأسود لفه السكون فبدأ كل شئ كذلك الا النفس القلقة الحائرة المتعبة الثائرة . .

وعادت نظراته تطدم بشبح ما . . ساورته نفسه الاقتراب . . حين فعل ميّزه لا مرأة، وفجأة كمن حسّه التيار الكهربي، فلقد تبينها . . صار أمامها . . إمرأة حلمه . .

حين صارا وجها لوجه ـ ندت عنها شهقة مبحوحة . . لكنها أيضا دافئة . .

وتكلم الليل حديثة . . وتحرك النسيم بالهوى، وفاجأ كل شئ صوتها :

ـ دعنى . . دعنى . .

ثم . . ذراعاها تطوقانه . . مسحور هو . . موسيقى أسطورية تنكسب من حولها، و . . يفيق ليجد الفراغ الهائل من جديد . شبحها

قد أبتلعه الدجى . .

الليلة خرافية تماما ! . . الليل أختلط عليه كثيراً . . ذاب الواقع والحلم معا . .

الذكرى تقدح نوازعه . . توقظ البركان . . يزمجر ويدمدم يدق جدران الصدر . .

ولم ينم ليلته تلك ، أو كان نصف النائم ! . .

وجاء النهار التالى شاحبا . . كئيبًا لا معنى للشاطئ أو لبحر ليست هى فيه ! . .

في المساء ضرب المسير . . يختطف النظر في طرقات المصيف . . أضواء "اللونابارك" وقبل أن يأخذ مكانه . . اذا بما لم يخطر بباله . .

رأها . . هي . . نلحمها ودمها . .

جلس وعيناه عالقتان بالوجه الآسر والشفتين المتأججتين . .

وأخذت عيناه الجالسين معها ، رجل مكتهل وصبي يشبهه . .

اللحظة الحاسمة جاءت . . تقابلت بعينية عيناها . . خاطفة تلك النظرات . . مبهرة . . توردت وجنتاها . . حديث ينقطع مع مجالسيها . . بدون تأهب تغادر المكان إلى الخارج . .

بغير إبطاء اتبعها . . فى نهاية الممر أدركها . . ردد :

ـ مساء الخير . .

وتلقى الصمت رداً وحينما هم أن يقول شيئا جاءه الصوت المتهجد :

ـ لماذا تلاحقنى . . ؟

كان ينتظر أى شئ تقول أو تفعل، لكنه الآن قد تأكد له إنها إمرأة أقرب إلى اللغز . .

ـ لست أفهم . . ماذا تعنين . . ؟ ! !

وعاد السكون، وتئد الخطوات . .

حيّره ما يجول بفكرها . . قرر أن يكسر الصمت :

ـ أنت تثير دهشتي . .

وباغتته يدها عندها ضغطت يده . .

ـ أرجوك . . بربك . . إنني أحتاجك . .

إختلط عليه الأمر . . تجمعت . . اختلطت في رأسه الفكر، وقبل أن تتسلمة الحيرة قال :

ـ وماذا أستطيع ؟ . .

مشاعر جديدة تدفع أمامها أحاسيسه بانوثتها الطاغية . . وعادت تقول :

ـ أنت لا تعرف شيئًا عنى . . لذلك فلن يتيسر أن تقدر موقفى أو تساعدنى . . لكن هناك سبيلاً قد يقنعك بما أريد . . من المؤكد أنك قد رأيت الرجل والصبي، ولا بد أنك قد تساءلت كثيرا . . هذا الطفل إبنها . . الآخرابوه . .

ـ هذا الحطام . .

وأسرعت مقاطعة تستكمل :

ـ أجل هذا الحطام . .

وساد الصمت فترة حتى قطعته ثانية :

ـ إمتلكنى زمنًا طويلا . . جسدى فقط ، ونادرا ، . لكن كيف حدث؟ . . هيه ! . . هبه ! . . القصة قاسية ! . . بدأها الألم . .

لقد تعودته بعد أبى يملأ وحدتنا . . يكسر حزننا حين تمتد يده ، تحيط الأجساد الصغيرة بالحنان . .

ـ " ليس في الدنيا وفاء صديق . . كما يفعل رفيق حياة أبيك . . "

كلمات أسى تحمل وجيب العرفان في حناياها . . تطرق أذنىّ باستمرار . . تتردد في اليوم ، مرات . . صارت نغمًا يدغدغ آثار الحزن على فقيدنا قبل الأوان . . .

انساب الدفء إلينا طويلاً ـ لكن فجأة ـ الشعلة بدأ يحيطها الاختناق . . سادراً أراءه . . هام وراء شئ مجهول . . يسعى . .

وحين أفصح . . جمدت الأسرة حيال مراده ومطأطأت أيضًا " أمام أثار يديه . . أبصر شقيقاتي متراجعات إزاء التضحية . . مترددات في مواجهة مراده . .

ولاأدرى . . كيف انسقت ، وعلى الاسرة ـ أندفعت أنا الصغرى ـ أعلن أننى له . . أستخفوا بقولى كثيرا . .

ظنوها المزحة الساذجة تطلقها طفلة . . .

ـ مازالت صغير . . البنت ـ تهوى العبث . .

شعور خفى سيطرعلىّ . . مضيت في الاصرار . . أو قل عناد عواطفى . . لكنهم بهتوا لتشبسى . . وصفونى بالطيش ، ثم بدأوا يرموننى بالتهم . .

ـ أتطمعين في ثروته . . ؟

ـ " بلا شك تلبسك الشيطان "

ـ " طبعا . . ستتركينه على حافة القبر وتستمتعين بالارث مبكرا . . "

ـ " ثراؤه سيكون لآخرتعرفين ! ! !

أغرق أسيرة الافتراء . . حتى يضيق بي قفص المذنبين . . وصرخت أمى :

ـ " لم أكن أعلم أن بطني تخرج مثلك "

سرحت عيناه بعيدا . . تذكّر " عطيات " طويلا . . صديقه سامي إغراءه "عطيات" كثيرا قائلا : سايوها . . تحصل على أموالها ثم . . حقق ما تتمناه منك . . "سوسن" تحصل عليها . . وأعادته كلماتها الصاخبة :

ـ . . . و . . وكسرت القفص الظالم . . إنهار الرفض . . إكتفوا بالتحسر على . . نعوا شبابى . .

كما شئت صرت له . . شبابى كل غداء وليمة شهية . . ثم . .

إلتقيت فجأة بالزوجة التي تعطى فقط . . فلقد صار فاقد الشئ ! . . ويعلو السنين . . فى محطات النقاهة ألتقس بحقيقة عمرى ، بمرضه الطويل العقيم تنكمش معه حياتى . . وأمضى معه رحلة الملل والألم . . أضع على المائدة كل وجود في لكنه قد فقد الشهية تماما . . بضيق صرت أرفع الطعام ، وبالعدوى شعرت أيضا بفقدان الشهية . .

ـ "ضاع شبابك يا " أمانى " . .

بأكثر من لغة يقولها الكثيرون . .

تململت . . ضجرت داخل السياج حتى قابلتك أنت بين

الأمواج . . ظننتك اليابسة للملاح التائة . . بشرى الأرض للزورق الضائع . . حسبت أنني امتلكت ما أتمناه طوال سنين الحرمان في لحظة . .

لكن . . بعد ساعات لقائك . . عاودني التململ والضجر ، وألم متوحش تنطبق مخالبه البشعة حول عنقي . . الحرمان جاء محله العذاب والتألم . . بعدما وجدتك . . رأيتك سراب البحر . .

وعاد الصمت . .

وابتعدت . .

وحثيثًا . . حثيثًا غيبتها طيّات الظلام . . .

***

obeikandl.com

(10)

"بدون إمرأة يهواها . . قاسى كثيراً . . مؤرق أيها الليل . . قضاه تائهًا . . متعثّراً . . لكنى . . كيف أصبح كذلك؟!!" . .

في مهب الرياح

كان مجلسى على ضفة النيل، فأخذت عيناى روّاد "الأوبرج" في نظره، ثم ذهبت أتأمل مجرى النهر، وعاد البصر بعد أن بلغ مداه . . المدى الذى تبلغه العنبان ثم تكلان عما دونه، حوّلتُ أنظارى في تأمل للضفة الآخرى . . جلستُ حيث الأرض الخضراء، واشجارالتوت المتناثرة، وذكريات متفرقات . .

يلذ لى ذلك، وأجد المتعة الكبرى في تأمل ماء النيل، وزرقة السماء، وأخضرار الأرض، ثم أخرج من شرودى، الى ما يحيطنى مرة أخرة في هذا المكان . "ينظرة اخذت تنتقل على الموائد وفوق الرؤوس . . ألمت بما حولى . . ليس شيئ جديداً ما أرى . . .

لكن في هذه اللحظة إصطدم بصرى بحسناء تنتحى مائدة في طرف المكان . . تبدو عليها مظاهر الرفاهية، وبعض من العظمة . . وشئ من الكبرياء . . .

مثير جداً يثوبها الملتصق بجسدها، فينم عن تناسق، ويصرخ بهذا

الجمال الأخّاذ. . ثم أعاود رحلتى مع الموجات المسافرة. . لكن دائمًا أعود إلى الشاطئ، وتسقط عيناى رغمًا عنى عليها. .

. . طبعًا. . ليس أهتمامى لرؤية هذه المرأة، يعنى فراغة عينى أو هوسى بالجنس اللطيف ـ لا سمح الله ـ أوانى لم أر إمرأة جميلة أبدا، حتى في هذا المكان. وأيضًا وجهها الذى تعلّقت به عيناى بجمال إشراقته، وثمة شئ آخر. .

فإننى خلت نفسي أعرفها، أو على الاقل رأيتها من قبل، ولكن أين؟. . ومتى؟. . ومن هى؟؟! فكان لبعد مجلسها، ولاذاكرة التى لاتريد أن تنصفنى، ما قيدنى عن الجزم بأننى أعرفها حقيقة، أو رأيتها قبلا. .

وحوّلت فضولى عنها، : أتأمل النهر، والسماء، والأرض الخضراء. .

لاأدرى كم من الوقت وأنا في سرحتى هذه. . بيدأني رُددت من شرودى، وكأن يد تنتزعنى انتزاعًا وفى عنف، هذه اللحظة عمل عقلى المتبلد، وجاءت الذاكرة بطيف باهت يهمس إلىّ يؤكد معرفتى لهذه الحسناء، وعمّن تكون، ولم أدر في لحظة بزوغ فكرى إلا أن أردد دون أن أشعر: " . . آه. . عرفتها " . . .

وقد خرجت العبارة بصوت لفت الأنظار الغريبة نحوى، فشعرت بخجل وحرج سُرعان ما تغلبت عليهما. . .

وفى التووجهت نظراتى إليها " وإذا بالمائدة خالية امتلكنى شئ من الصْجر، وأنا ألعن ذاكرتى في نفس موبخًا. . إن منفعة الغوث وقت العطب أيتها الذاكرة البليدة " .

ولم تخف عنى نفسيتي ـ فقد ظهرت على حقيقتها في تلك اللحظة، فما بدر منى رغم عنى نوّة لى بالرغبة التى أجتاحتنى، لكى أحادث هذه الحسناء، وأن أقترب منها . . .

وماذا يجدى ألآن، لرغبة مكبوتة أوكونى أعرفها بعد ما مضت . .

وعدت بنفسى وفكرى، الى النهر بأمواجه، والسماء بكواكبها، والأرض بزروعها وخضرتها، لأغرق في تأملاتى الممتعة، غير أن صورتها أخذت تتغلب علىّ فيبد و وجهها على صفحة النهر، وفى كبد السماء، وهناك بين الزروع الخضراء.

وظل البصرعالقًا بصورتها وشعرت بعقم الفكرة، أن أظل أتخيل طيف إمرآة. . أعرف شيئا عن ماضيها: جميلة حلوة فاتنة ـ كأننى فتى مراهق قد هوى . . .

وأدرت ظهورى لمسرح التأملات وأشغل نفسى بالملأ الذي يحيطني، بيد أن عينى حتى الآن عالقتين بالطيف، وأراه في هذه المرة قد تجسم ووضح. هناك على مائدة قريبة جداً منى. نعم لقد كانت هى!!

وسرعان زالت آثار دهشتى. ورجعت إلى عقلى الراكد. فقد جمد عن استنتاج أنها قد تكون انتقلت إلى مائدة أخرى، عندما فوجئت بمائدتها خالية في المرة الأولى. أما في هذه المرة فلم أستطع أن أحوّل عينىّ عنها. وربما لاحدث نظاراتى المصوبة حوها. بل بالفعل أدركت هذة الندوات. ونظرت إليها. فالتقت عينانا. في تلك اللحظة تأكدت ظنونى وأنها "هى"، ولاح أنها عرفتنى. فقد تخضب وجهها بالحمرة. وإذا بى أبتسم. وأقف عن مقعدى ثم

أتخذت سمتى نحوها :

ـ أتسمحين أن أجلس . .

وأجابت وهى تخفى ترددها واضطرابها :

ـ تفضل .

وبعد ما جلست ، وقبل أن يحرجنا الصمت ويلفنا في غلالته ، تكلمت . . أذكرها بمعرفتنا السابقة :

ـ وجيه صدقى طبعاً تذكرينني .

ـ أجل هناك سابق معرفة . .

وزمت شفتيها ، وكأننى أذكّرها بشئ كئيب . .

أتذّكر شيئا من ماضيها . ومن ثم وهى أمامى . . لاأستطيع أن أحكم عليها الا كونها نصف زوجة ، أو نصف مطلقة فقد هجرت زوجها ـ الذى كان صديقاً لى ـ في ظروف غامضة واختفت إلى غير رجعة وتركته شبه حطام ، . .

وها أنذا أفاجأ برؤيتها . .

قلت لها :

ـ " أرجو ألا تظنينى رقيبا ، ولكن الصدف شاءت أن نتقابل في هذا المكان .

ـ " لايا أستاذ . وأيضا أنا اعتبره من قبيل الصدف لا أكثر "

فدللت على موافقى وأرتياحى بهز الرأس ، وكاد أن يغشينا الصمت . وفى تلك اللحظة قدم البنا الساقى فطلبت لها ولى مشروبا . .

. . وأردت أن أقول شيئًا، أي شيء، بينما تشاغلت هي بارتشاف المشروب الذي كانت سفتاها تبذه رقه وعذوبة.

حاولت أن أتحدث عن الطبيعة. . السماء بزرقتها والنهر بموجاته وألارض الخضراء بأشجارها وأزاهيرها. لكن غلب على كل هذا إرادتى في الحوص في حياتها، والظروف الغامضة التى أكتنفت أختفائها عن ذلك الزوج المحطم. عنها في ماضيها وفى حاضرها. . لقد كان فضولى من نوع فريد عجيب فضول قاتل لايرحم وتحرك لسانى، وأنا أتخيّر الالفاظ وأتوسل باللباقة لكى أجذبها للحديث عن نفسها. .

ـ لقد مضى زمن طويل قبل أن أرلك.

ـ أجل

باقتضاب شديد أجابت. . جعلنى هذا أكاد أيأس من حثها على الفض بخبيئتها واتجهت بعينها الى النهر. وغطست نظراتها هناك، وظلت كأنها غريق احتوته الأعماق. ثم سمعتها تردد بصوت صادر من تلك الاغوار:

ـ إن الحياة كالبحر. . قلما يتقابل فيه الإنسان على غير موعد. .

وحين صمتت لم أعلقّ. . فأنا أدرك أن الانسان حينما يتحدث بلغة المنطق و "التفلسف" إنما يكون مدفوعا أمام نازع عميق يدفعه للحديث عن نفسه. . فيتحدث ويظل يفعل وكأنه يخفف عن صدره ثقلاً كبيراً، وهمًا دفينا. . .

وطال صمتها بينما جذب سمعى طائريتنقّل على شجرة اللبلاب المنتشرة غضونها كأشعة الشمس ويغنى بنغم رتيب، وكاد يلوح لي

عقم أستنتاجى . ولكنها تكلمت أخيرا : فنحن في الحياة كقافلة في عرض البحر ، فاذا ما هبّت العواصف والرياح وثارت بين هدير وهياج .

تفرقت القافلة اللهم إلاّ هناك فى نهاية الرحلة والمطاف ، وبعد ما تواجه كل منها من الأحوال صنوفا ، وتقاس من الهلاك آلوانا ، وربما تصادف في طريقها سفنا آخرى ، ولكنها أيضا تائهة . .

في تلك اللحظة . ويبدو لى أنهاالمرة الاولى التى لم يركن فيها عقلى إلى ركوده ، فقد اقتنصت الفرصة المواتية ، ويلباقة قلت :

ـ وأنت هل تعذبت كثيراً في متاهات هذا البحر . .

أوهل بلغت نهاية المطاف؟ ! .

رفعت عينين بالدموع تشرقان وعليهما أهداب كالسيوف مشرعة . . تهتز إنفعالاً . بينما يداها تختلجان خفية . ثم قالت فيما بشبه الهمس :

ـ لا أظن أننى بلغت النهاية بعد . أما عن الأول فاننى تعذبت كثيراً ، وتحطمت أكثر . .

ـ هو الآخر تعذب ! . . وتحطم ! . .

وهنا قالت ثائرة :

ـ لا . . لا تذكره . إننى أكرهه ! . . أكرهه حتى وإن كان أكثر من حطام . . لقد كان سبب رثائى له أو شفقتى من أجلة ، واياك أن تحملنى وزراً لما ناله وأصيب به ، لقد بت أمقته أشد المقت . . ! !

تملكتنى الدهشة والعجب . . ولم أستطع كتمان مشاعرى . .

ـ عجيب جدا . . ما أسمعه منك، وهذا الشعور المجحف الذى تكتيه له . لقد كان يحبك حبًا يقارب العبادة . . بل قولى ياسيدتى إنه الجنون . . ! !

هنا فوجئت بها تضحك، وتضحك ويتفجر ضحكها بالمرارة . . مرارة لاذعة، حتى كادت تدمع عيناها، وردت في نبرة ينبعث منها الشجن واليأس المرير :

ـ حب حتى العبادة، أو حب حتى الجنون ! ! لا ياسيدى قل . . جنون حتى العبادة أو عبادة حتى الجنون ! !

ـ ولم أتمالك فابتسم وأنا أكتم ضحكة بينما تحوّل بصرى نحو النهر حيث كان زورقا يشقه . . ضاربًا صفحته التى تتكسر تحت دفع مجذافه . .

وجاء صوتها :

ـ لقد سمعت أنت، وسمع الآخرون، وعلموا بأمر ذلك الحب الذي أوضحت لك حقيقته .

فقلت متهكما : جنون حتى العبادة أو عبادة حتى الجنون .

فحدقت في دهشة وصاحت :

ـ ألا تصدقنى ؟ !

فنظرت إلى الوجه الفاتن ولم أدر ماذا أقول ! ؟

ـ أعتقد انك إذا علمت كيف كانت حياته معى، لصدقّت قوْلى في حقيقة حبه . ولإلتمست لى عذرًا لكل ما فعلت . .

ـ تفضلى ياهانم أنا مستعد لسماعك .

وبدت منها علامات التردد، ولكن ما فتئت أن هزّت كتفيها هزة لها مغزاها، ثم بدأت تخوض في الماضى . .

ـ كان فتى يافعًا، وكنت فتاة غضة . . حين بدأت بتلاتها تفتح وتأخذ لونها الجذّاب في هذه السن ـ احبنى الفتى . ولست أدرى . كيف عرف الحب بذلك المعنى . . حينذاك كنت أعرض عنه . . لا أبالى به . . لماذا؟ لست أدرى . غير أنه ظل ممعنا في الحب مدينًا لغرامه، ويلوح لى أنه مستعد لكل شئ من أجلى . حتى لما كان أقصى وأقصى من الموت . .

وتدور الأيام فأتزوج شخصًا آخر، وبعد زمن تبوء حياتنا الزوجية بالفشل ثم الانفصال . . هكذا أخذت الأيام دورتها، وعدت طليقة لأجد في انتظاري الفتى المحب، الذى قد أصبح شابًا وظيفته ومكانه في المجتمع وله نفس القلب، ونفس الحب . .

بل زادته تلك السنون التى موت تأججاً . .

ربما كنت قد نسيت . . لكنه عاد وتزوجت منه . خشيت أن تصيرى في بحر الحياة بغير قائد . .

بحرارة الشباب، وقوة الرجولة كان حبه لى حب مكبوت انطلق ليتنفس، عنيفًا أشد العنف هذا الحب، جارف أشد انجرافًا . . كان يعشقنى . . كنت أرى حبه في لمسه ليدى، أرى غرامه قبلاته، أرى الوله والعشق كلنا ضمنى إليه، كنت أرى من عينيه يطل الحب في نظرات وله . . أسمع ترنمات الروى يصرح بها في همساته . خطواته . . كلماته، وابتساماته، كلها الحب، لاشئ غير الحب . . ! !

يجلس ملتصفاً بى يهمس بالحب . . يقعد قريبًا منى وبتغنى

بالهوى . . ويهزج في هيام . وينام بعيداً كل البعد عنى . . من أجل الحب . . ! !

اذا ما توعكت يومًا يقبع جانبي ، وأن أطالت الأيام توعكى ، يملأ التحسر دنياه ، نظراته تسبح إلىّ في خشوع ، يتأملنى كأنى إله مسّه حرامًا وذنب لا يغتفر . .

أخذ لايتحدث إلىّ . . بل عيناه تهمسان . . بات لا يضمنى . . أصبح يرى في جمالاً يجب أن يقدّس صار رمز طهارة ونقاء يجب ألا يمس يرانى أكثر من قديسة . . نصف إله ! !

وكان لزامًا عليه أن يثق ثقة عمياء في نصف الإله ويؤمن به إيماناً . وله كل ما يريد . . وما يرغب . .

وتركنى في سمائى . . وهو هناك بين وهاد وجبال . . المنصوف التهجد . . ودنياه . . وأنا كلما حاولت أن أد نومنه . . يتباعد عنى . . فينطلق بعيداً . . وأنا بين البشر . . إمرأة . . زوجة لها وعليها . . ولكنه لا يريد أن يأخذ . . أنا لازلت بشرا . . أما هو فقل . . القديس ! . . بل . . بل قل شيطان . . شيطان رحيم ، جعلنى أكرهه . . لم أر فيه زوجًا له الحق على . . قل لم أرفيه حتى أنسان الغاب .

لقد صاربينى وبينه حاجبًا منيعًا من الحب المجنون والثقة العمياء وطهارة الملائكة ، وأرتفع وسما وتركنى أحترق الأرض . .

وبئست ، واليأس يقتل أدنى درجات الحفاظ على أى شئ مهما عظم ! . . ضعفت ! . . وهل حقًا ضعفت ؟ ! . . لا . . لا أعتقد . . فلقد قضت الطبيعة بحكمها ، وبحثت عن رجل من البشر ، ولم يكن ذلك بالعسير وكان أول رجل صادفته . . طوانى بين يديه ،

وذبنا في دروب الأرض . .

أما هو . . فإنه ـ واجزم ـ مازال في سمائة . . حتى اذا كان محطماً شر تحطيم ! !

وسكتت . . سكتت ونظرت إليّ . . وأنا أنظر إليها . . الملاك رمز الطهارة والنقاء وأتحول إلى السماء . . .

ثم ، أبتسم وقد أختلط على مغزاها . . .

وحبئذ بينما أنا غارق بفكرى . . شارد بعقلى . سمعت صوتا :

ـ بعد إذنك . .

ثم يلتفت صاحبه إليها :

ـ هالو هويدا . . تفضلى معى . .

واستجابت واقفة ثم حيتنى بكلمة رقيقة ضاعت بين بسمتها المفتعلة ونظراتها الحائرة . . وسارت برفقة الشباب . . خرجا من " الأوبرج " . . غابا عن عينىّ . .

أدننُ بصرى إلى النهر موجاته تتضارب ، وتتفرق كلماتنا المتزاحمة المتفاقَمة ثم تتفرق ، والزورق يدور حول نفسه وسط النهر . ورويداً رويداً يحيطه السودا . . يخفيه الظلام . .

ونظرت الى السماء الزرقاء . . تخيلت . . إله الحب . .

ثم نظرت إلى الارض الخضراء قد غشاها الظلام . واختفت الحركة في الدروب .

(تم بحمد الله)

***

المؤلف في سطور
عماد الدين عيسى

- عضو مؤسس إتحاد الكتاب .
- عضو مجلس إدارة نادي بالقاهرة .
- عضو منظمة العفو الدولية .
- عضو مؤسس ندوة الأربعاء بنقابة الصحفيين .
- عضو دار الأدباء .
- عضو رابطة الأدب الحديث .
- عمل محرراً أدبيًا ومستطلعًا صحفيًا بمجلة الكويت (وزارة الإعلام) وشارك في تأسيس المرحلة الرابعة من المجلة عام 1980 .
- عمل بصحيفة السياسة الكويتية (القسم الخارجى) .
- عمل سكرتير تحرير مجلة صوت الخليج .
- رأس القسم الأدبى ل (جريدة البلاغ) الدولية .
- رئيس تحرير الرأى الأدبى .
- يقوم بتدريس الصحافة التطبيقية بقسم الاعلام بكلية التربية النوعية .
- مؤلف إذاعى ، يقوم بالتأليف الدرامى ، المادة العلمية ،

obeikandl.com

والثقافية، والقصة المؤلفة لشبكات إذاعة ج.م.ع.

- أذيعت معظم قصصه ونوقشت أعماله الأدبية في العديد من البرامج الثقافية والأدبية. فى الاذاعة المصرية: إذاعة البرنامج الثقافى (إذاعة البرنامج الثانى)، الشرق الاوسط، إذاعة الشعب، صوت العرب، إذاعة القاهرة، إذاعة الشباب، إذاعة فلسطين، والإذاعة التعليمية.
- نشرت أولى مجموعاته القصصية (فى مركب الخطايا) عام 1963.
- حصل على الجائزة الأولى للقصة القصيرة عن وزارة الثقافة والأعلام عام 1971.
- نشرت قصصه ومقالاته وتحقيقاتة الصحفية. ودراساته النقدية، كما أجريت معه لقاءات وأحاديث وتنويهات في الصحف المصرية والعربية منها:

فى الصحف المصرية: الاهرام، الجمهورية، روز اليوسف، الثقافة، الهلال، الرأى، الادبى، الكاتب، الاهرام المسائى، الثقافة الاسبوعية، الزهور، حريتى، مجلة الاذاعة والتليفزيون، الاحرار، الوفد، الاخبار، الكواكب، المنصورة، الشباب العربى، المساء، حواء، السياسى المصرى، السلام، صوت فلسطين، البلاغ المسائية وفى العديد من الصحف الأقليمية.

وفى الصحف الخارجية: اليقظة، صوت الخليج، أسرتى، الكويت، القبس، الانباء، الوطن، الطليعة الكويتية، السياسة، الإنماء العربى، المتحف العربى، الخفجى، الرياض، اليوم،

الشروق، المنهل، العربى، والمجتمع.

- شارك في العديد من المؤتمرات الأدبية والثقافية والعلمية العربية والدولية وعمل على تغطية معظمها إعلامياً، ومنها: "ندوة الابداع الفكرى الذاتى في العالم العربى، ندوة المسرح العربى، مهرجان الخليج: الأول، والثانى، والثالث، للإنتاج التليفزيونى، المؤتمر العام الخامس لوزراء التربية والتعليم والمعارف لدول الخليج العربية، الدورة الخامسة للمجلس الأعلى لملوك وأمراء دول الخليج العربى، المؤتمر الدولى لمواجهة الإدمان، المؤتمر الدولى لمنظمة الفاو، مؤتمر الأليكسو التابع لليونيسكو، المؤتمر الدولى الاول للإيدز، ومؤتمر اتحاد العرب الإذاعات الاسلامية".
- أسس مع صفوة من الأدباد (منتدى عروس النيل الأدبى) وفروعه المتعددة.
- قام بجولة صحفية وثقائية في كل من الول التالية: فرنسا، المانيا، إسبانيا، اليونان، سويسرا، المغرب، الاردن، السعودية، العراق، الكويت، واستوحى منها العديد من الكتابات الصحفية والمؤلفات الأدبية والفكرية.
- شارك في العديد من الندوات وألقى المحاضرات في القضايا القومية من خلال ندوات ومؤتمرات هيئة الاستعلامات (وزارة الإعلام)، التى تقام في المواقع الشبابية والدورات التدريبية، وفى العديد من القرى والمواقع الجماهيرية.
- إستضافة العديد من القنوات التليفزيونية المعنية بالبرامج الثقافية

والأدبية والفنية .

- نوقشت أعماله الأدبية في العديد من المحافل الأدبية : نادى القصة ، رابطة الادب الحديث ، منتدى عروس النيل ، وبعض نوادى الأدب ، المنتدى الأدبى بكلية التربية التربية النوعية . اتحاد الكتاب ، فروع الاتحاد في الإسكندرية والمنصورة . مراكز الثقافة : أسيوط ـ المنيا ـ الشرقية .
- تحولت قصته القصيرة (جبل النار والزيتون) إلى مسرحية قدمت على مسارح الثقافة الجماهيرية . إخراج ناجى الدسوقى .
- روايته "سلمى وجبل النار" يقوم بتدريسها د . عادل عوض لطلاب الدراسات العليا بدار العلوم .

دراسات نقدية حول الكاتب:

أولاً: الكتب:

- قصص عماد الدين عيسى بين الأصالة والمعاصرة ـ الناشر الثقافة الجماهيرية . بأقلام : نجيب محفوظ ، د . محمد حسن عبد الله ، أ . أحمد زكى عبد الحليم ، د . مصطفى عبد الغنى ، أ . د على شلش ، أ . فتحى سلامة ، أ . عاطف مصطفى ، أ . ماهر قنديل ، د . محمود الربيعى ، د . حسن فتح الباب ، د . أحمد درويش ، أ . صلاح عيسى ، أ . فوزية مهران ، أ . محمد قطب ، د . عبد الحميد القط ، أ . بلال خيربك (كاتب سورى) وآخرون .

ثانيًا: فصول في كتب:

- قراءة في عيون المستقبل أ. فتحى سلامة ـ مكتبة الاسرة 1996 م.
- تيارات القصة القصيرة هيئة الثقافة ـ شرق الدلتا عام 2002م.
- كتاب أ. عبد العزيز موافى عام 1999 م.
- ديوان بحر بلا شيطان أ. فاطمة عبد العزيز عام 2002 م.
- رؤى نقدية.. إبراهيم سعفان.

ثالثًا: دراسات وقصص ومقالات متفرقة في العديد من الصحف المصرية والعربية منها:

- الأهرام، الأهرام المسائى، السلام، صوت فلسطين، المساء، الجمهورية، الأخبار، حواء، الميدان، القبس، الأنباء، الوطن، القلم، المنصورة، الرأى الأدبى، الاذاعة والتليفزيون، والمصور. ومجلة القصة، المحيط الثقافي، مجلة "ضاد" المسائية، الهلال.

(الإصدارات)

- فاتنة الرجال . . (رواية) . . صدرت عام 1961 .
- أمواج الذكريات . . (رواية) . . صدرت عام 1962 .
- فى موكب الخطايا . . (قصص) . . صدرت عام 1963 .
- الدقيقة الثلاثون . . (قصص) . . الناشر سلسة فكر جديد صدرت عام 1971 .
- قصص من المنصورة . . (قصص) . . الناشر سلسة فكر جديد صدرت عام 1972 .
- إيقاع وبشر . . (قصص) . . مع محمود تيمور، نجيب محفوظ، ثروت أباظة، محمد جبريل، عبد العال الحمامصى وآخرين الناشر سلسة أصدقاء الكتاب . . صدرت عام 1973 .
- الثأر . . (قصص) مع أخرين الناشر لجنة الأدباء صدرت عام 1974
- الخروج من الكهف . . (رواية) هيئة الكتب صدرت عام 1985 .
- يوسف السباعى فلسفة قلم وحياة . . (دراسة) الناشرهيئة الكتاب . . صدرت عام 1987 .
- المارد وشجرة التوت . . (قصص) الناشر هيئة الكتاب . . صدرت عام 1988 .
- التعادلية في أدب توفيق الحكيم . . (دراسة) الناشر هيئة الكتاب . . صدرت عام 1994 .

obeikandi.com

- بئر في صدر رجل . . (قصص) الناشر أتحاد الكتـاب . . صـدرت عام 1994 .
- فاتنة الرجال . . (قصص) . . ط2 الناشـر دار القـارئ العربـى . . صدرت عام 1995 .
- الأميرة ذات الهمة . . (قضة للطلائـع) الناشـر دارأبـن لقمـان . . صدرت عام 2002 .
- التعادليـة في أدب توفيـق الحكـيم . . (دراسـة) ط 2 . . الناشـر مكتبة الأسرة صدرت عام 1998 .
- يوسف السباعى فلسفة قلـم الحيـاة . . (دراسـة) ط2 . . الناشـر مكتبة الأسرة صدرت عام 1999 .
- العـشق وأشـياء أخـرى . . (قـصص) الناشـر إتحـاد الكتاب . . صدرت عام 1999 .
- سـلمى وجبـل النـار . . (روايـة) الناشـر الثقافـة الجماهيرية . . صدرت عام 1999 .
- دماء الأميرة ذات الهمة . . (رواية) صدرت عام 2003 .
- ثلاثية آدم وحواء . . (قصص) الناشر نادى القصة سلسلة الكتاب الفضى صدرت عام 2003 .
- كارثة تهدد الأديان . . (دراسة) الناشر دارأبن لقمان عام 2006 .
- نساء الليل والنهار .

تحت الطبع

- عذابات المحروسة .
- علاقة نجيب محفوظ بالسلطة .
- حبيبتى توشكى . . " قصص " .
- إمراتان وشيطان . . " قصص " .
- من عالم القصة إلى كنوز التراث . . " دراسة " .
- الحب والتمرد . . " دراسة " .
- سندباديات عصرية جدا . . " أدب رحلات " .
- ديمقراطية الثقافة وثقافة الديمقراطية . . " مقالات " .
- الشعراء والغاوون . . " دراسة " .
- سيرة الأميرة ذات الهمة . . " دراما الملحمة " .
- مائة كتاب في كتاب .
- الأشباح وعالم الأرواح .
- سقوط الأقنعة .

obeikandl.com

المحتويات

المشهد الأول:

نساء الليل ٤

المشهد الثاني:

ليته يقول لي ١٢

المشهد الثالث:

حجرة في الطابق الخامس ٢٥

المشهد الرابع:

الصعود إلى أسفل ٣٦

المشهد الخامس:

ما بعد الليلة الأولى ٤٥

المشهد السادس:

أنات الطيور ٥٦

المشهد السابع:

البيوت من زجاج ٦٠

المشهد الثامن:

مارد وشيطان ٦٥

المشهد التاسع:

سراب البحر ٧٠

المشهد العاشر:

في مهب الرياح ٧٩

المؤلف في سطور ٨٩

obeikandl.com